

من روائع الأدب العالمي للناسئين

خارج القرصان الفرنسي

دافني دي مورييه



خليج القرصان الفرنسى

خليج القرصان الفرنسى

تأليف : دافنى دعامورييه

تبسيط : د. ك. شـوان

ترجمة : سعد توفيق

مراجعة : مختار السويفى

على سبيل التقديم

وتمضى قافلة «مكتبة الأسرة» طموحة منتصرة كل عام، وها هي تصدر لعامها السادس على التوالي برعاية كريمة من السيدة سوزان مبارك تحمل دائماً كل ما يثرى الفكر والوجدان ... عام جديد ودورة جديدة واستمرار لإصدار روائع أعمال المعرفة الإنسانية العربية والعالمية فى تسع سلاسل فكرية وعلمية وإبداعية ودينية ومكتبة خاصة بالشباب. تطبع فى ملايين النسخ الذى يتلفها شبابنا صباح كل يوم .. ومشروع جيل تقوده السيدة العظيمة سوزان مبارك التى تعمل ليل نهار من أجل مصر الأجل والأروع والأعظم.

د. سمير سرحان

مقدمة

تنحدر دافنى دى مورييه من أب مشهور وجد لا يقل عنه شهرة ، فقد كان جدها ، جورج دى مورييه فنانا وكاتبا مشهورا . وكان والدها السير « ميرالد دى مورييه » ممثلا ذائع الصيت أيضا . وقد كتبت دافنى دى مورييه قصة عائلتها فى كتاب عنوانه « عائلة دى مورييه » .

وهى أيضا مؤلفة لعدد من القصص الناجحة للغاية مثل : (حانة جاميكا) وقد ظهرت عام ١٩٣٦ .

و (ربيكا) عام ١٩٣٨ • وخليج القرصان الفرنسي
عام ١٩٤٢ •

واقترنت دافنى فى عام ١٩٣٢ برجل من رجال
السلك العسكرى اللامعين ، وهو السير فردريك
براونينج • وقد عاشت فى كونوال سنوات عديدة ،
بالرغم من انها من مواليد لندن • وهى تعرف الأماكن
التي وصفتها فى قصصها •

وتقع أغلب أحداث هذه القصة فى الحى الذى يقع
بجوار نهر هلفورد (الخريطة ٨) وعند فوى
(الخريطة ٤٥) •

أما زمن الأحداث فيقع فى ابان حكم الملك شارل
الثانى ملك انجلترا (١٦٦٠ - ١٦٨٥) • وكان هناك
الكثير من الحماقات حينذاك فى لندن وحول بلاط
الملك ، ولقد كانت دونا سانت كولب بطلة الرواية
عندما غادرت لندن هاربة الى كورنول ، انما تبغى
النجاة بنفسها من ذلك الجو الصاخب التافه الذى
اقرن بعودة الملكية • • وهناك فى كورنول قامت
بمغامرتها الكبرى • •

الفصل الأول

لقد حدثت تغييرات كثيرة في « ناثرون » وحول
نهر « هلفورد » منذ أن ذهبت « دونا سانت كولب »
الى هناك .

كانت هاربة من حياتها في لندن مصطحبة الطفلين
والحاضنة . وكان ذلك نتيجة فكرة مفاجئة طبعاً .
فقد كانت تتصرف دائماً في حياتها الخاصة بوحى
الأفكار الفجائية .

تزوجت « هارى » بدون تفكير حريص ، بسبب ضحكه - فان طبيعته الهازئة الكسول قد أعجبتها - ولأنها ظنت أن تعبير عينيه يعنى أكثر مما هو فى الواقع - لكنها أدركت ذلك الآن ، بعد فوات الأوان .. ولكن لا ، لم يكن « هارى » المسكين بسكره وغبائه هو الذى يجب أن يلام . بل ولا حتى الحياة الخالية من العقل التى عاشاها معا ، ولا أصدقاءهما ، ولا القذارة وحرارة الصيف فى لندن ، ولا حديث البلاط الفارغ الذى لا يزال يتردد فى أذنيها . وانما هى نفسها التى كان يجب توجيه اللوم اليها . لقد كانت تهرب من نفسها !

ربما كانت ترايبس النافذة لم تمس منذ شهور .. فقد كانت متصلبة نتيجة عدم الاستعمال ، وقد لقيت « دونا » مشقة فى معالجتها بعض الوقت . ثم فتحت النافذة على مصراعيها وأتاحت للهواء المنعش وللشمس أن ينفذا الى داخل الحجرة .

ورأت فى زجاج النافذة انعكاس صورة الخادم وهو واقف خلفها . وكان بمقدورها أن تقسم بأنه كان

يبتسم ، لكنها عندما استدارت رآته متجهما وقورا مثلما
كان لحظة وصولها . كان رجلا طويلا نحيفا ، ذا قم
ضيق ووجه أبيض بشكل غريب .

قالت :

– انى لا أتذكرك ، فانك لم تكن هنا عندما جئنا
من قبل .

قال :

– لا ، ياسيدتى .

– ما اسمك ؟

– وليم ، يا سيدتى .

لقد نسيت أن أهالى كورن يتكلمون بطريقة غريبة
للمغاية ، تكاد تكون غير مفهومة تماما ، افترضت على
الأقل أن لغته هي لغة أهالى كورن .

قالت :

– لا شك اننا قد سبينا قدرا كبيرا من المتاعب ،

بوصولنا المفاجيء وفتح المنزل . لقد ظل المكان مغلقا
وقتا طويلا بالطبع . فالتراب في كل مكان ، ويدهشنى
أنك لم تلاحظ ذلك !

ترى أكان الرجل يضحك منها حين قال :

ـ لقد لاحظت هذا يا سيدتى ، ولكن حيث أنك
لم تحضرى أبدا الى « نافرون » فانه لم يعد من الضرورى
تنظيف الحجرات . . ان من العسير أن يشعر المرء
بالحماس فى أداء عمل لا يراه أحد !

قالت دونا وقد سرى عنها :

ـ حقا ، فالسادة الكسالى : يصنعون خدما
كسالى ؟

فقال بوقار :

ـ بالطبع يا سيدتى .

قالت :

ـ هلا تفضلت برؤية أن كل حجرة فى البيت قد
كنست ونفضت . . وأن كل الفضيات قد نظفت . .

وأن الزهور قد وضعت في أماكنها من الحجرات ..
وأن كل شيء قد تم عمله على خير وجه ، كما لو لم أكن
كسولة ، بل كأنتى أعيش هنا منذ سنوات عديدة !

قال :

— سيكون هذا مصدر سرورى الخاص ، يا سيدتى !

ثم انحنى وغادر الحجرة ، وتبينت « دونا » بشيء
من الضيق أنه قد سخر منها ثانية وليس علانية ، ولكن
كما لو كان فى الخفاء من خلف عينيه .

فقفزت من النافذة وحطت على العشب الناعم أمام
المنزل . لقد قام البستانيون بعملهم أمس أو أول أمس ،
عندما وصلت الأخبار التى تنبئ بقدومها .. يا له من
ضيق قد سببته ولا شك عندما اقتحمت على الناس هنا
صفو حياتهم الهادئة ، وعكرت صفو هذا الرجل الغريب
المدعو « وليم » ! .. وهل كانت طريقته فى الكلام
« كورنية » حقا ؟ ..

ومن مكان ما ، من النافذة المفتوحة فى جانب
آخر من المنزل ، أمكنها أن تسمع صوت « برو » اللائم ،

وهي تطلب ماء ساخنا للأطفال ، وهديرا عاليا من
« جيمس » .. يا له من طفل صغير مسكين .. لا يحب
أن يغتسل ويستحم ويجرد من ملابسه .. !

ثم سارت عبر فتحة في الأشجار كانت تتذكرها
منذ جاءت الى هنا آخر مرة .. كانت على صواب ..
فلقد كان هناك النهر بالأسفل ، متألقا هادئا ، والشمس
تشع فوقه في هدوء ، وثمة نسمة من الهواء تحرك
سطحه . لابد أن يكون هناك قارب بمكان ما .. يجب
أن تتذكر أن تسأل « وليم » عما إذا كان هناك قارب ..
وبمقدورها أن تستقله وتتركه يحملها الى البحر . يجب
أن يأتي « جيمس » أيضا . ويمكن لكل منهما أن يغمس
يديه ووجهه في الماء ، فتقفز الأسماك من الماء ، وتغرد
حولهما طيور البحر ..

ياله من شيء رائع ، أن ينأى المرء بنفسه أخيرا ،
أن يهرب ، أن يتحرر من قيوده ، أن يعرف أنه على بعد
أكثر من ثلاثمائة ميل من لندن ومن بلاط الملك شارل ،
ومن ابتسامة « روكنجهام » الكريهة وعيني « هاري »
الناعستين المرتبكتين ..

كانت الشمس تغرب الآن خلف الأشجار . . وكان
النهر بالأسفل يضرب لونه الى حمرة تشير الضيق ،
بينما كان « وليم » يضيء الشموع فى القاعة . لقد
تناولت عشاءها متأخرة ، وأكلت باستمتاع لم تعهده ،
جالسة وحدها عند طرف المنضدة الطويلة ، بينما كان
« وليم » يقف خلف كرسيهما منتظرا فى سكون .

قالت :

- وليم . .

- سيدتى !

- أخبرتنى وصيفتى أن الخادومات بالطابق الأعلى
مستجدات على المنزل ، وأنتك أرسلت فى طلبهن عندما
سمعت بوصولي ؟

- هذا صحيح تماما يا سيدتى .

- ماذا كان السبب ، يا وليم ؟ لقد كنت أعتقد
- وأعتقد أن السير « هارى » يعتقد نفس الشيء - أن
« نافرون » بها دائما هيئة كاملة من العاملين .

– لقد بدا لى يا سيدتى ، ويحتمل أن أكون مخطئاً
– أن عليك أن تقولى – ان خادما واحدا عاطلا بالمنزل فيه
الكفاية • وقد عشت خلال السنة الأخيرة فى وحدة تامة •

فتطلعت اليه من خلف كتفها قائلة :

– كان بمقدورى أن أفصلك لهذا السبب
يا « وليم » !

– أجل يا سيدتى •

– ومن المحتمل أن أفعل ذلك فى الصباح •

– أجل يا سيدتى •

واستمرت تأكل الفاكهة ، وهى تفكر فيه ، وقد
تملكها الضيق وأثار همومها أن تجد خادما يمكن أن يكون
من الصعوبة بحيث لا يمكن فهمه • ولكنها عرفت أنها
لا تنوى فصله •

– لنفرض يا وليم اننى لم أفصلك .. فماذا

اذن ؟

– سأخدمك باخلاص يا سيدتى •

— كيف يمكننى التأكد من ذلك ؟

— لقد خدمت دائما باخلاص من أحبهم يا سيدتى .

لم تحر جوابا ازاء هذا ، لأن فيه الصغير المزور لم يبد علامة من علامات الشعور تختلف عما كان عليه من قبل ، كما أن عينيه لم تقولا شيئا ، ولكنها شعرت فى قلبها أنه لم يكن يسخر منها الآن ، وأنه كان صادقا فى كلامه .

وغادرت الحجرة دون أن تنبس بكلمة ، عالمة أنها قد وجدت صديقا فى هذا الرجل النحيل المثير للفضول . وضحكت خفية من نفسها ، وهى تفكر فى « هارى » وكيف سيتطلع الى عينيهما الواسعتين ، دونما فهم : « ان الرجل لا يحترم أحدا ، ويحتاج لأن يجلد بالسوط ! » .

بعد فترة من الوقت صعدت الى حجرة نومها ، ومرت على حجرات الأطفال لترى ما اذا كان كل شئ على ما يرام . . . كانت « هنرييتا » تبدو أشبه بتمثال من الشمع ، وخصلات شعرها الناعمة تحيط بوجهها ، بينما كان « جيمس » بحاجبيه المعقودين مستغرقا فى نومه ،

ويبدو أشبه بكلب صغير سمين غضوب . وحركت يده
الكامنة داخل الغطاء ، وقبلتها . وفيما هي تفعل هذا
فتح عينا وابتسم . وغادرت الحجرة في هدوء ، شاعرة
بالخجل من رقتها نحوه . لا شك أنه سيكبر ليكون بدينا
وفظا غليظ القلب ، ويصيب بالتعاسة حياة امرأة ما . .

ثمة شخص - انه « وليم » فيما تعتقد - قد قطف
بعض الزهور ووضعها بحجرتها تحت صورة لها . لقد
ملأت الحجرة بعير قوى وحلو . ونظرت الى صورتها
باهتمام . أأملك أنا ذلك الفم النهم ؟ وتلك النظرة الناقدة
الصبر تلوح من العينين ؟ أكنت أبدو على هذا النحو منذ
ست أو سبع سنوات مضت ؟ ! .

وتساءلت اذ هي في الفراش يداعب أجفانها
النعاس . وترقب القمر يرسم أشكالا على الأرض ، أية
رائحة كانت تلك الرائحة التي فرضت نفسها بالزهور -
انها رائحة أقوى . لقد بدا أنها تنبعث من درج تحت
المنضدة ، ومدت ذراعها وفتحت الدرج ونظرت بداخله .
كان ثمة كتاب هناك ، وعلبة من التبغ . لقد كان التبغ ،
طبعاً ، هو ما شتمته . تناولت العلبة . كان التبغ بنى

اللون وناعما وطازجا ، لا شك أن « وليم » لا يجروء على النوم فى سريرها ، وأن يرقد هناك وهو يدخن ، ويتطلع الى صورتها ؟ .. لو حدث ذلك لكان أمرا لا يغتفر .

كان ثمة شىء بخصوص التبغ ، شىء لا يماثل « وليم » ، لابد أنها مخطئة - ومع ذلك - اذا كان « وليم » قد عاش هنا لمدة سنة وحده ؟

وفتحت الكتاب - أكان يقرأ الكتب ، أيضا ؟ وكانت الآن أشد ارتباكا من ذى قبل ، لأن الكتاب كان كتاب شعر ، شعر فرنسى ، تأليف الشاعر « رونسار » وقد كتب أحدهم بداخل الغلاف « ج ، ب ، أ » - « فنيستير » .. وبأسفله رسم صورة بالغة الضالة لطائر من طيور البحر .

الفصل الثانى

عندما هبطت « دونا » السلم فى الصباح ، ناداها
طفلاها بسرور . . وكانت « هنرييتا » ترقص فى سعادة
كما كان « جيمس » ، وهو لا يزال نعسانا ينساب خلفها
أشبهه ببحار سعيد سكران ، وذهب الثلاثة الى الغابة
لجمع الأزهار البرية .

وهكذا مضى اليوم الأول ، والتالى ، والذى بعدهما ،
و « دونا » فرحة بحريتها التى استردتها من جديد .

ومرت أيام سعيدة ، وازداد لون الطفلين سمرة
وتحسننت صحتهما . وحتى « هنرييتا » كانت تتخلي
عن عادات أهل المدينة ، راضية بأن تجرى بقدميها
الحافيتين على الأعشاب ، وأن تمارس الألعاب وتتدحرج
على الأرض مثلما يفعل جيمس ، مثلها مثل أى حيوان
صغير .

كانا يلعبان على هذا النحو عصر ذات يوم ، يقفزان
ويسقطان فوق « دونا » ، التى تستلقى على ظهرها
وثوبها وشعرها فى فوضى جنونية (بينما كانت « برو »
التي لا ترضى عن هذه الفعال تقعد فى الداخل آمنة) ،
كانوا دافئين وسعداء ويقتربون كل حماقة مع الشمس .
وفجأة سمعت صوت حصان قادما فى اتجاه المنزل ، ثم
صوت ضجة عظيمة فى الفناء ، مشفوعة بنداء مرتفع
يصدر عن جرس عظيم . والأسوأ من ذلك أن « وليم »
كان قادما نحوها ، على العشب ، وثمة رجل غريب فى
اثره ، رجل ضخم سمين ذو وجه أحمر وعينين منتفختين
قبيحتى الشكل ، وشعره المستعار كث كثيف ، يصل
حتى ساقيه ويحمل عصا طرفها من ذهب .

قال وليم بوقار دونما انزعاج من مظهرها المهوش
الذى لا يشبه مظهر سيّدة راقية فى شىء :

— اللورد «جودولفين» يريد أن يراك يا سيدتى !

فنهضت واقفة فى الحال ، تحاول أن تهندم ثوبها
وتصفف شعرها : كم هو مزعج ، كيف يجروء على المجيء
مقحما نفسه عليها • ثم ابتسمت وقالت :

— اننى مسرورة لرؤيتك •

فانحنى بوقار لقولها ولم يحرجوا • فقادت
الطريق الى البيت وهى تختلس نظرة الى نفسها فى المراة
المعلقة الى الحائط ، كانت هناك وردة خلف أذنّها ، فلم
تهتم ، وتركتها فى مكانها •

ثم جلسا على كرسيين ونظر كل منهما الى الآخر
فى ارتباك • وبينما كان اللورد «جودولفين» يعض
الطرف الذهبى من عصاه • قال :

— سمعت انك هنا • • ورأيت أنه من الواجب ، أو
من الممتع بتعبير أصح أن أقوم لك بزيارة فى أقرب

وقت . لقد مضت سنوات عديدة منذ أن قدمت أنت
وزوجك الى « نافرون » . والواقع ، أننى يمكننى القول ،
انكما قد صرتما غريبين . اننى أعرف هارى جيدا عندما
عاش هنا صبيا .

— حقا . . ١٩

قالت « دونا » دون أن تواتيها القدرة على رفع
عينها عن فقاعة بجانب أنفه ، لحظتها توا فحسب .
يا له من رجل مسكين تعيس الحظ ، وأبعدت نظرها
بسرعة مخافة أن يتبين أنها كانت تنظر اليها .

واستأنف قائلا :

— أجل ، يمكننى القول اننى اعتدت أن أعتبر
« هارى » من بين أعز أصدقائى . . ولكننا لم نره منذ
زواجه الا قليلا ، فهو يقضى كل وقته فى لندن !
ففكرت فى نفسها قائلة انه يلومنى بالطبع . .

وقالت :

— واننى آسفة لأن أقول ان « هارى » ليس معى ،
واننى وحدى هنا مع الطفلين !



اللورد جودولفين يريد أن يراك يا سيدتي !

قال :

• شيء مؤسف تماما •

• فلم تجب بشيء •

واستطرد قائلا :

• كان يمكن أن تأتي زوجتي معي • ولكن صحتها

متوعة في الوقت الحالي • باختصار

ولزم الصمت هنيهة ، لا يدرى كيف يستأنف

الحديث ، فابتسمت « دونا » ، **قائلة :**

• اننى مدركة تماما • • فإنا نفسى لدى طفلان •

فازداد وجهه احمرارا عندما سمع هذه الكلمات ،

وانحنى ، **قائلا :**

• ونحن ننتظر طفلا •

قالت « دونا » عاجزة مرة أخرى عن أن ترفع

ناظرها عن الفقاعة العالقة بأنفه :

• بالطبع !

لكم هي مخيفة بالنسبة لزوجته ! ولكن «جودولفين»
كان يتكلم ثانية ، قائلا شيئا عن سرور زوجته باستقبالها
فى أى وقت ، وعن قلة الجيران ، وهكذا . .

وفكرت « دونا » فى نفسها قائلة ، لكم كان غيبا
ثقيل الظل ، أما من طريق وسط بين هذا الغباء المظهرى
الجهنم وبين شر « ركنجهام » المتهور ؟ ايمكن أن يصبح
« هارى » مثل هذا الرجل اذا عاش فى « نافرون » ؟!

كان « جودولفين » يقول :

— كنت أتوقع أن يمنحنا « هارى » بعض العون
هنا . لا شك انك قد سمعت عن متاعبنا .

قالت « دونا » :

— لم أسمع شيئا .

— لم تسمعى ؟ ربما كنت بعيدة جدا عن هنا
بحيث لا تصلك الأخبار ، بالرغم من أنه كان هناك كلام
كثير بخصوصه . لقد تعذبنا أكثر مما نحتمل هنا من
أفعال قرصان ، فثمة بضائع ذات قيمة عظيمة قد فقدت

فى « بئرین » وعبر الساحل .. كما هوجمت ممتلكات
جار من جيرانى منذ أسبوع مضى أو ما يقرب من هذا .

قالت « دونا » :

– يا له من أمر مكر .

فاعلن « جودولفين » قائلا :

– بل أنه أمر أكثر من مكر . انه مثير للغثيان !

واستطرد وقد تزايد وجهه احمرارا وجحظت عيناه
أكثر من ذى قبل :

– ولا يعرف أحد أن يعالج الأمر . لقد أرسلت
شكاوى الى لندن ولم أتلق ردا . أرسلوا لنا بعض الجنود
من بريستول ، ولكن لا جدوى منهم . لا ، اننى أستطيع
أن أرى اننى وغيرى من الملاك فى هذا الجانب من البلد
سيتعين علينا أن نتحد ونعالج الخطر ، وأنه لمن المؤسف
للغاية أن « هارى » غير موجود فى « نافرون » ، من
المؤسف جدا .

**سألته « دونا » وهي تضغط اظافرها في يديها
لتمنع نفسها من الابتسام :**

- هل أستطيع أن أفعل شيئا لمساعدتكم ؟

فبدأ عليه الغضب ، وقال :

**- يا سيدتى العزيزة ، لا شيء يمكنك فعله ، الا أن
تطلبى من زوجك أن يأتى ليساعد أصدقاءه بحيث نستطيع
أن نحارب هذا الفرنسى اللعين .**

قالت متسائلة :

- فرنسى ؟

قال وهو يكاد يصرخ من الغضب :

**- لم تسألين ، أجل ، وذلك أسوأ ما فى الأمر .
فهذا الشخص أجنبى لعين ، ويبدو أنه لسبب أو لآخر
يعرف ساحلنا جيدا ، وينزلق بعيدا الى الجانب الآخر ،
الى « بريتانى » قبل أن نتمكن من القبض عليه . وسفينته
أسرع من أى سفينة من سفننا فى هذا الجزء من البلد .**

انه يزحف الى موانينا ليلا ، ويرسو في سكون مثل
الفار ، ويمسك ببضائعنا ويرحل قبل الصباح بينما
رجالنا ينفضون النوم من عيونهم .

قالت « دونا » :

– الواقع انه اشد مهارة منكم .

فاجابها وقد شعر بالاهانة في الحال :

– اجل اذا راقك ان تصورى الامر هكذا .

قالت :

– أخشى ألا يستطيع « هارى » الإمساك به أبدا :

فهو كسول جدا .

قال « جودولفين » :

– أنا لا أدعى انه يستطيع ، ولكننا نحتاج مزيدا

من الرؤوس للمشاركة فى هذا الأمر . ربما كنت

لا تدركين مدى جدية الأمر . . لقد سرقنا مرة بعد مرة ،

ونسأؤنا ينمن فى قلق على حياتهن ، وليس على حياتهن فقط .

— أو هـ . أهو قرصان من ذلك النوع اذن ؟

قال « جودولفين » بحدة :

— لم يفقد أحد حياته بعد ، وما من واحدة من نسائنا قد اغتصبت . ولكن لما كان ذلك الرجل فرنسيا فقد تبينا جميعا ، أن الأمر مسألة وقت قبل أن يحدث شىء مخجل !

قالت « دونا » :

— أو هـ . بالطبع !

ولما كان الضحك يرتفع بداخلها ، فقد وقفت وسارت فى اتجاه النافذة . كان الرجل شديد التجهم والثقة بنفسه بحيث لم تعد تحتمله ، فيغلبها الضحك . ولكن شكرا لله ، فقد فهم الرجل من حركتها انها اشارة له بالذهاب . فانحنى بوقار وقبل اليد التى مدتها اليه .

لقد أملت أن يكون الزائر الأخير ، لأن هذا النوع
من الأمور لم يكن ما قصدت اليه ، فهذه الجلسات الوقورة
على الكراسي وعقد أحاديث لا إثارة فيها ولا تشويق كانت
أسوأ من الحياة الغبية في لندن . فيجب أن تنبه « وليم »
إلى أنه إذا جاء ضيوف آخرون فليخبرهم بأنها غير موجودة
بالبيت ! .. وقالت :

— أجل يا « وليم » ، لقد حضرت إلى « نافرون » ،
لأتجنب الناس ، وأنفرد بنفسى . أريد أن أعزل عن
العالم طالما كنت هنا ..

قال :

— أجل يا سيدتى ، لقد اقترفت خطأ هذا المساء
ولن يحدث ثانية . وستستمتعين براحتك وتحققين
هروبك .

قالت :

— هروبى ؟

فأجاب :

— أجل ، يا سيدتى ، فأننى أعتقد ان هذا هو
سبب وجودك هنا . . لقد هربت من نفسك اللندنية ،
وكانت « نافرون » مكان اختفائك .

فلزمت الصمت لحظة مندهشة . . ثم قالت :

— ان لديك موهبة مندهشة فى رؤية ما يدور بداخل
عقول الناس يا « وليم » من أين جاءتك ؟

قال :

— كان سيدى السابق يتحدث الى طويلا وفى كثير
من الأوقات . والكثير من أفكارى مستعار منه . وقد
اعتدت دائما أن لاحظ الناس كما كان يفعل هو . وأعتقد
أنه كان سيدعو وصولك الى هنا هروبا .

— ولماذا تركت سيدك يا « وليم » ؟

— لقد أضحت حياته فى الوقت الحالى ، يا سيدتى ،
بحيث لا تفيد شيئا كثيرا من خدماتى . فقررنا أننى قد
أكون أكثر نفعا فى مكان آخر .

– وعلى هذا فقد أتيت الى « نافرون » ؟

– أجل .. يا سيدتى .

– وعشت وحدك هنا ؟ ربما كانت « نافرون » ،

أيضا مكان هروب بالنسبة لك .

– ربما تكون كذلك يا سيدتى .

– وماذا يفعل سيدك السابق ؟

– انه يسافر يا سيدتى .

– أيقوم برحلات من مكان الى آخر ؟

– تماما يا سيدتى .

– فهو أيضا يا « وليم » هارب . فالناس الذين

يسافرون دائما يفعلون ذلك لكي يهربوا .

– كان سيدى يبدى نفس الملحوظة ، يا سيدتى .

والواقع أننى أستطيع القول بأن حياته هروب لا ينتهى

ابدا .

قالت « دونا » :

– شيء سار بالنسبة له . أما نحن فلا نقدر أن
نفعل ذلك الا من حين لآخر . ومهما عظم تظاهرننا باننا
أحرار . . فائنا لا نعرف الحرية الا لفترة من الوقت . .
فأيدينا وأرجلنا ترسف في الأغلال .

– هكذا الأمر يا سيدتى .

– وسيدك ؟ ألا تغله قيود من أى نوع ؟

– لا شيء منها اطلاقا !

– انى أود أن أقابل سيدك يا « وليم » .

– أظن أنكما ستتفقان حول كثير من الأمور

يا سيدتى .

– ربما مر يوما ما بهذا الطريق أثناء اسفاره . .

– ربما يا سيدتى .

وشعرت انها بحاجة الى أن تتحدث الى البحر ،

الى البحر المنبسط بلا حدود . وليس الى النهر . وعندما

سرت البرودة فى المساء وهبطت الشمس من أعالى السماء ، وصلت أخيرا الى مرتفع من الأرض حيث صاحت طيور البحر غاضبة عند وصولها ، لأن الفصل كان فصل بناء الاعشاش . وتطلعت شاخصة الى البحر فيما هى تلقى بنفسها على العشب الخشن وأحجار المرتفع .

كان هناك النهر . بعيدا الى اليسار ، واسعا ومتألقا عندما يلتقى بالبحر ، وكان البحر نفسه هادئا تماما ، وقد خلعت عليه الشمس الغاربة احمرارا ولونا شبيها بلون النحاس الأحمر . وأما هناك بالأسفل ، فقد كانت الأمواج الصغيرة تتكسر تكسرا خفيفا على الصخور .

وبينما كانت « دونا » راقدة وتتطلع مراقبة ما يجرى ، وقلبها يغمره السلام ، رأت علامة واهنة على الأفق ، ثم شيئا فشيئا أخذت شكلا ، ثم رأت الأشرعة البيضاء لسفينة من السفن . ولم تقم السفينة لفترة من الوقت بأى تقدم لأنه لم تكن هناك نسمة من الريح ، وبدت كأنها معلقة هناك ، بين البحر والسماء أشبه بلعبة مرسومة فى لوحة . ثم ملأت رياح المساء الخفيفة الأشرعة، وزحفت السفينة قادمة فى اتجاه الأرض ، فى سكون ،

وفى صفاء ، تاركة خلفها أثرا طويلا أسود . وراود
« دونا » شعور ما ، كما لو أن ثمة يد لمست قلبها ،
وكما لو أن صوتا همس فى عقلها ، « سأذكر هذا » .
لحظة حلم بالمستقبل ، جالبة معها الدهشة ، والخوف ،
وفرحة غريبا مفاجئا ، واستدارت « دونا » ، وهى تبتسم
لنفسها دونما سبب ، وتقدمت عبر التلال الى « نافرون » ،
وهى تقفز فوق المستنقعات كأنها طفلة ، بينما كانت
السماء تعتم ، والقمر يرتفع . وريح الليل تهمس فى
الأشجار الفارغة .

الفصل الثالث

لقد ذهبت الى الفراش فور عودتها ، لأن السير
أثعبها ، وسرعان ما استغرقت فى النوم ، بالرغم من أن
الستائر كانت مرفوعة والقمر يسطع فى الحجرة . ثم ،
لا بد أن الوقت كان بعد منتصف الليل تماما ، عندما
استيقظت . . . كان هناك صوت وقع أقدام بأسفل النافذة
.. هل يمكن أن يكون هناك أحد فى ذلك الوقت من
الليل ؟

غادرت الفراش واتجهت الى النافذة . . لم تستطع
أن ترى شيئاً . . فذلك الذى كان واقفا تحت نافذتها
لا شك أنه قد ذهب . . لقد انتظرت وراقبت ، وفجأة ،
من بين الأشجار خلف الأعشاب ، تحرك شكل فى ضوء
القمر وتطلع ناظرا الى المنزل ، ورأته يضع يديه فى فمه
ويعطى صفارة رقيقة ، خافتة ، وفى الحال زحف شكل
آخر خارجا من ظلال المنزل وجرى بسرعة عبر الأعشاب
ضوب الرجل الواقف بجوار الأشجار ، وارتفعت يده
كما لو كان يصدر تحذيرا ، ورأت أن « وليم » هو الشكل
الذى يجرى . ثم ابتعد الشكلان واختفيا فى ظلال
الأشجار .

وتساءلت عما اذا كانت غاية فى الغباء حين وثقت
« بوليم » . فأى انسان آخر كان قد طرده فى ذلك
المساء الأول عند علمه كيف عاش فى البيت بمفرده ،
دون أن تصدر له أوامر بأن يتصرف على هذا النحو .
وطريقته فى السلوك ، التى لا تشبه فى شئ سلوك
الخادم العادى ، تلك الطرق السلوكية التى أثارت
اهتمامها . . ثم علبة التبغ وكتاب الشعر . . لم تستطع

أن تفهم كل هذا .. ولكن لابد أن تفعل شيئا فى
الصباح !

وهكذا دون أن تستطيع أن تقرر شيئا ، وقد
تغير فكرها .. غشيها النوم أخيرا ، ونور الصباح القاتم
يختلس طريقه الى الحجرة .

كان اليوم دافئا ومتألقا ، مثل اليوم السابق ،
تنيره شمس ذهبية عالية فى سماء بلا سحب . وعندما
نزلت « دونا » ، وكانت حركتها الأولى فى اتجاه الأشجار
حيث اختفى الرجل الغريب « ووليم » فى الليلة الماضية .
أجل ، لقد كان الأمر كما توقعت ، وكانت خطواتهما قد
تركت أثرا خفيفا ، خلال الأزهار البرية ، يسهل تتبعه .
وادت بها مباشرة عبر طريق الغابات وعميقا الى الأسفل
خلال أشد الأشجار كثافة . واستمرت فترة من الوقت ،
وكان أثر الأقدام يؤدي دائما الى أسفل ، ملتويا ، غير
واضح ، أشد صعوبة الآن فى تتبعه ، وفجأة تبينت أن
أن هذا الطريق سيؤدي بها فى نفس الوقت ، فى اتجاه
النهر ، أو فرع من النهر ، لأنها رأت عن بعد ضوءا
ينعكس من الماء . لم يخطر ببالها أنه يمكن أن يكون

ثمة ماء على قرب منها بهذا الشكل . لأنه من المؤكد أن
النهر نفسه يجب أن يكون بعيدا الى الخلف منها ، جهة
اليسار ، وكان هذا الخيط من الماء الذى رآته غير
معروف ، فهو اكتشاف . ترددت لحظة ، لا تعرف ما اذا
كان عليها أن تتقدم ، ثم تذكرت مدى تأخر الوقت .
فالطفلان وربما « وليم » نفسه فى انتظار الأوامر .
فاستدارت راجعة ، وتسلمت صاعدة خلال الغابات مرة
أخرى ، واستمرت فى طريقها حتى وصلت الى منزل
« نافرون » . . يجب أن يؤجل الأمر الى وقت أفضل ،
ربما فيما بعد عندما يجيء الغروب .

وأخيرا ، عندما خرج الطفلان مع « سمرو » ، وأرسل
« وليم » فى مهمة ، وضعت ثوبا قديما لا يعنيتها اذا
ما تمزق ، ومنديلا حريريا على رأسها ، وانزلت خارجة
من منزلها مثلما يفعل اللصوص .

تتبع أثر الأقدام التى وجدتها فى الصباح ، لكنها
فى هذه المرة أخذت طريقها مباشرة الى الغابات دون
تردد . أجل ، فهناك مرة أخرى الانعكاس على الماء ، ذلك

الانعكاس الذى أثار دهشتها . لقد أصبحت الأشجار أقل عدداً . . . وهناك ، فى مواجهتها مباشرة كان هناك الخليج ، ساكننا لا ينم عن صوت ، مختفياً بالأشجار ، خفياً عن أعين الناس . فنظرت إليه فى تعجب لأنها لم تكن تدرى عن وجوه شيئاً ، هذا الفرع الحفى من النهر زاحفاً داخل أرضها ، تحجبه ، وتخفيه عن الأنظار الغابات نفسها .

كان المد مندفعاً . فاستأنفت طريقها ، حتى وصلت الى مكان ينحنى فيه الخليج ، وعندئذ توقفت ورجعت الى الأشجار ، لأن فى مواجهتها هناك ، حيث يتسع الخليج فجأة ، كانت ترسو سفينة شديدة القرب منها بحيث كان بمقدورها أن تلقى شيئاً على سطحها . وعرفتُها فى الحال .

لقد كانت هى السفينة التى رأتها ليلة أمس ، وكان الاسم الذى كتب عليها بالطلاء هو « لامويت » .

كان كل شيء هادئاً يرتع فى غمرة سكون أمسية من أمسيات الصيف . ففكرت « دونا » ، فى انه ما كان

بمقدور أحد أن يعرف أن السفينة ترسو في الخليج ،
محجوبة عن الأنظار بالأشجار من مصب النهر الا اذا
ستار كما سارت من منزلها في « نافرون » .

وصعد رجل على سطح السفينة ، رجل نحيل
باسم الوجه ، مثل قرد ، ويحمل آلة موسيقية غريبة
في يديه . وجلس وأخذ يلمس أوتار آله ويغنى ،
بحنان في أول الأمر ، ثم أخذ صوته في الارتفاع قليلا ،
وتبينت « دونا » وهي تحاول سماع الكلمات ، وقد
غمرتها موجة من الفهم ، بينما يخفق قلبها بجنون ،
أن الرجل كان يغنى بالفرنسية .

لقد عرفت ، وفهمت . . وجف فمها ولأول مرة
في حياتها شعرت بنوبة غريبة من الخوف .

لقد كان هذا مكان اختفاء الرجل الفرنسي - وتلك
كانت سفينته . كان يجب عليها أن تفكر بسرعة ،
وتخطط خطة ، وتصنع من معرفتها بعض الفائدة . كم
يبدو الأمر واضحا الآن ، هذا الخليج الساكن ، وهذا
المكان الصالح تماما للاختفاء . . يجب أن يتم فعل

شيء ، يتعين عليها أن تقول شيئا . . وأن تدلى بما تعرف
لإنسان يشاركها هذا الاكتشاف .

أهي في حاجة الى ذلك ؟ أبعقدورها أن ترحل الآن ،
متظاهرة انها لم تر السفينة ، وتنسى أمرها ، أو تتظاهر
بنسيانها . . فتفعل أى شيء لتتجنب التورط في هذا
الأمر ، لأنه قد يعنى نهاية سلام نفسها ، كما يعنى
الانزعاج والقلق . . ويعنى جنودا يتحركون في ضجة
خلال الغابات ، ومجىء « هارى » من لندن ، وكافة
أنواع المشكلات ، ولن تعود « نافرون » المكان الأمين
الذى تهرب اليه . لا ، لن تبوح بشيء لأحد ، ستزحف
بعيدا الآن ، راجعة الى الغابات والى البيت ، محتفظة
بمعرفتها الآثمة طى الكتمان . . فلا تخبر أحدا ، تاركة
أعمال النهب والسلب على علاقتها . . فيم يهم الأمر ؟
يجب أن يحتمل « جودولفين » وأصدقائه الأغنياء ، فانها
لن تهتم .

وعندئذ ، بينما هي تستدير لتنزلق مبتعدة بين
الأشجار ، برز شكل من خلفها ، من الغابات ، وألقى

بمعطفه على رأسها ، وحجب عينيها ، وقيد ذراعيها الى
جانبيها بحيث لا تستطيع التحرك ، ولا تستطيع
المقاومة ، فسقطت عند قدميه ، بلا حول ، وشعرت
بأنها قد ضاعت !

الفصل الرابع

كان شعورها الأول هو شعور الغضب . كيف
يجرؤ امرؤ على أن يعاملها هكذا ، وأن يقيدها مثلما تقيد
الدجاجة ، وأن يحملها الى الماء .

لقد ألقى بها بفضاظة في قاع القارب ، وتناول
الرجل الذى أمسك بها المجدافين واندفع متجها الى
السفينة . وأطلق صيحة .. صيحة طائر بحرى ..
ونادى على زملائه في السفينة بلغة لم تستطع أن
تفهمها . وسمعتهم يردون عليه ضاحكين .

كانت قد حررت نفسها الآن من المطف ،
وتطلعت ناظرة الى الرجل الذى أمسك بها . وتحدث
اليها بالفرنسية وضحك . كانت تلوح بعينه نظرة
مرحة ، كما لو كان الامساك بها لعبة ، ونكتة مسلية
فى أمسية من أمسيات الصيف . نظرت اليه فى كبرياء
غاضبة ، فرسم على وجهه تعبيرا يوحى بالتجهم ،
متظاهرا بأنه خائف وانه يرتجف فرقا . كان كل شيء
مختلفا عما كانت تتوقع . كان هؤلاء الرجال أشبه
بالأطفال ، وقد سرهم أن يروها ، يتسمون ويصفرون ،
بينما كانت تعتقد أن القراصنة رجال يثيرون الخوف
ويضعون حلقاتا فى آذانهم وسكاكين بين أسنانهم .

كانت السفينة نظيفة .. وكانت تتخيل ان
سفينة القرصان يجب أن تكون قذرة وملطخة بالبقع
وتفوح برائحة شريرة .. كما كانت أنيقة منسقة ..
وكان خشب أرضياتها خاليا من البقع ، وفى الجانب
الأمامى من السفينة ، حيث يعيش الرجال ، كما
افترضت ، كانت تنبعث رائحة الحساء الطيبة التى

تثير الشهية . . وكان الرجل يقودها خلال أحد الأبواب ويهبط بها بضع درجات ، ونقر على باب آخر ، فرد عليه صوت هادئ يدعو للدخول .

وقفت « دونا » عند الباب ، وهي تجد بعض الصعوبة فى الرؤية لأن أشعة الشمس كانت تنساب بداخلها من خلال النوافذ ، مكونة أشكالا مائية على الخشب الخفيف . وشعرت مرة أخرى بانها غبية ساذجة ، لأن هذه لم تكن الثغرة المظلمة التى تخيلتها ، المليئة بالزجاجات الفارغة والأسلحة . لقد كانت حجرة أشبه بحجرة فى بيت بها كراسى ، ومنضدة لامعة ، ورسومات قليلة لطيور على الجدران ، كما كان بها شئ يريح الأعصاب .

وانصرف الرجل الذى أتى بها ، مغلقا الباب بهدوء ، بينما استمر الشخص الجالس الى المنضدة فى كتابته غير عابئ بدخولها .

ثم تبين أن أنه لم يكن يكتب اطلاقا بل يرسم . كان يرسم برقعة وبعناية عظيمة ، صورة طائر بحرى .

لم تعرف عندئذ فيما تفكر ، لأن القراصنة لم يكونوا على هذا النحو ، أو القراصنة الذين في خيالها على الأقل ، ولم لا يكون القرصان الحق شخصا ، شريرا ، شتاما وتكون يدها قذرتين ، ملطختين بالشحم ، ولا يكون هذا الشخص الجاد ، الجائس الى منضدة لامعة دون أن يآبه لها ؟

ثم تكلم أخيرا بصوت أجنى خفيض ، وكان لا يزال محافظا على عدم النظر اليها ، مستمرا فى الرسم . وقال :

- يبدو أنك كنت تحافظين على مراقبة سفينتى ؟!

فشعرت بالغضب فى الحال وقالت متحدة ببرود ، ووضوح ، بالصوت الصياني الذى تخاطب به الخدم :

- بل على العكس تماما . يبدو أن رجالك حطوا على أرضى دون أذننى .

فتطلع اليها فى الحال .. ونهض واقفا ..
فبدأ طويلا ، بل أطول كثيرا مما تخيلت - ولاحظ
بعينه السوداوين نظرة تدل على أنه قد تعرف عليها ،
أشبه بلهيب مفاجيء ، وابتسم ببطء ، كما لو كان
يبتسم فى الخفاء . وقال :

- أقدم أشد تأسفاتي تواضعا .. لم أتبين
أن سيادة بيت « نافرون » قد جاءت لتزورنى .

وحرك كرسيا فى مواجهتها ، فجلست ، دون
أن تنبس بحرف . وواصل النظر اليها ، بتلك النظرة
التي تدل على أنه قد تعرف عليها ، نظرة مرح خفى
تشع فى عينيه .

قالت ، لأنه كان يتعين عليها أن تقول شيئا ،
بينما لم يكن يفعل شيئا الا النظر اليها بطريقته
الغريبة الفضولية :

- أكان امساكى واحضارى الى هنا بحسب
أوامرك .

قال :

– لدى رجالى أوامر بتقييد كل من يقترب من الخليج • ولم نصادف أية متاعب • ولكنك كنت أشد جسارة من أهالى البلد ، وأخشى أن تكونى قد عانيت بسبب جسارتك • أنك لم تصابى باذى • أليس كذلك ؟

فقالت بحدة :

– لا

– مم تشكين اذن ؟

قالت وقد انتابها الغضب للمرة الثانية لأنه كان يحاول أن ييديها غيبة بلهاء ، ولكن غضبها أمتعته فحسب :

– اننى لم اعتد أن يعاملنى أحد هكذا • ماذا تنوون أن تفعلوا بى ؟

فأجاب :

— آه ، لا أعرف الإجابة على ذلك . يجب أن
استطلع الكتاب الذى دونت فيه لوائحى .

وفتح درجا فى المنضدة واستخرج كتابا .
وقلب الصفحات ببطء ووقار شديد . . . وقرأ بصوت
مرتفع :

— السجناء . . طرق القبض عليهم . .
الاستجواب . . المعاملة . . أجل . . كل شيء هنا . .
ولكن لسوء الحظ أن هذه الملاحظات عن القاء القبض
ومعاملة السجناء المذكور . يبدو أننى لم أعمل أية
ترتيبات لمعاملة الاناث . وهذا فى الحقيقة اهمال
شديد منى .

وفكرت فى « جودولفين » ومخاوفه ، ورغم
ماهى فيه من ضيق فقد ابتسمت ، وهى تذكر
كلماته : « لما كان هذا الشخص فرنسيا ، فإن الأمر
مسألة وقت فحسب » .

وقطع صوته مسار أفكارها ، وهو يقول :

ـ ذلك أفضل ، انك لاتبدلين فى خير حالاتك
عندما تغضبين ، كما تعرفين ، لقد بدأت الآن تبدلين
كما أنت بالفعل .

قالت :

ـ ماذا تعرف عنى ؟

فابتسم ثانية وهو ينحنى الى الامام فى مقعده

وقال :

ـ السيدة سانت كولب ، طائر البلاط المدلل .
الليدى دونا التى تحتبى الخمر فى حانات لندن بحثا
عن المغامرة . انك مشهورة تماما ، كما تعرفين !

فوجدت نفسها ووجهها يحمر خجلا ، وقد
هزتها كلماته التى أظهرت رأيه الذى لايشرفها .
فقالت :

ـ ذلك لم يعد .. لقد انتهى !

– تقصدين لفترة من الوقت ؟!

– لا .. الى الأبد .. !!

فشرع يصفر لنفسه بحنان .. وتناول الصورة
التي يرسمها وأخذ يعبت بها ، ويضع الخلفية •

قال وهو يتطلع اليها ثم يحول نظره عنها :

– ان الخليج هو مكان هروبي .. لقد أتيت هنا
لكى لا أفعل شيئا • ثم أبحر ثانية قبل أن تتحكم فى
البطالة •

قالت :

– لتكون قرصانا وتسرق جيرانى •

فوافق قائلا :

– لاكون قرصانا وأسرق جيرانك !

وانهى رسمه ووضع بهيدا ثم نهض قائما
ناشرا ذراعيه فوق رأسه • **قالت :**

– ذات يوم سيلقون القبض عليك •

فقال :

– ذات يوم •• ربما •

وتحرك في اتجاه النافذة ناظرا عبرها وظهره
اليها ، وقال :

– تعالى وانظري !

فنهضت عن كرسيها وذهبت ووقفت بجانبه .
وتطلع كل منهما الى الماء ، حيث كان يحوم عدد كبير
من طيور البحر باحثه عن الطعام •

وأخبرها قائلا :

– انها تأتي في عشرات دائما • يبدو أنها
تعرف في الحال متى تعود ، وهي تأتي الى هنا قادمة
من الساحل ، ويطعمها رجالى دائما • ولا أستطيع
أن أمنعهم ، وأنا على ما أنا عليه من سوء • اننى ألقى
اليها دائما بقطع من الخبز ، من هذه النافذة •

وضحك ، والتقط قطعة من الخبز ، وألقى بها
إليها ، وغطست طيور البحر بحثا عنها ، وهي تتعارك
وتصايح .

قال :

– ربما كانت تشعر أن السفينة من أقربائها .
إنها غلطتى أن أطلقت عليها اسم « لامويت » .

قالت :

– لامويت .. معناها الطائر البحرى !

– لقد نسيت ماذا تعنى .

واستمررا يراقبان طيور البحر ، وهما منحنيان
على النافذة .

وحدثت « دونا » نفسها بأن هذا جنون . لماذا
أفعل هذا ؟ إنه ليس ما قصدت ، وليس ما نويت .
فاننى الآن ، ولاشك سأقيد بالحبال ويقذف بى فى
مكان مظلم داخل السفينة أعانى الآلام وفى مكلم ،

وهانحن نلقى الخبز الى طيور البحر وقد نسيت
ما أنا عليه من غضب .

وقطعت جبل الصنم بقولها :

– لم أنت قرصان ؟

فاجاب :

– لماذا تمتطين الجياد البالغة الشراسة ؟

فقالت :

– بسبب الخطر ، وبسبب السرعة . وبسبب
اننى قد أقع من فوقها .

فقال :

– ذلك هو السبب فى اننى قرصان .

– أجل ، لكن .

– ليس هناك لكن من أى نوع . فانها جميعا
بالغة البساطة فى الواقع ، وليس هناك مشكلات

معقدة بخصوصها . ليس بى غضب من المجتمع ،
ولا حقد مرير على بنى قومي . كل ما فى الأمر هو أن
مشكلات حياة القرصان تثير اهتمامى . ليس الأمر
مجرد قتال وقتل ، كما تعرفين . فالتنظيم يستغرق
منى عدة ساعات لأيام عديدة ، فكل تفصيلة من عملية
ارساء السفينة يجب التفكير فيها والاعداد لها . انى
أكره العمل الذى يتم بلا تدبر . ان الأمر كله هو
مشكلة تنفذ فى الذهن . وعندئذ احصل على متعتى
.. على لحظة اثارتنى .. انه شىء يرضى النفس غاية
الرضا .

قالت :

— أجل . أجل . انى أفهمك .

قال وهو يضاحكها :

— انك متحيرة ، ألسنت لذلك ؟ لأنك توقعت أن
تجدنى أسوء من يعاقر الخمر وملقى هنا على الأرض ،

محاطا بالدماء والسكاكين والزجاجات والنساء
الشريرات .

فبادلته الابتسام ولم تحر جوابا .

ومد يده ليتناول علبة التبغ الموضوعة على الرف
وشرع يهز القماش في يده . كانت مغلقة تماما ،
شديدة السواد وبنية اللون . وفجأة ، انهالت عليها
الحقيقة مثلما تنهال ضربة ، ورأت وعاء التبغ في
حجرة نومها ، وكتاب الشعر الفرنسى ، وعليه رسم
طائر البحر داخل الغلاف . ورأت وليم يجرى فى اتجاه
الأشجار . . . وليم . . . وسيد . . . سيد . . . الذى يقوم
برحلات متنقلا من مكان الى آخر . . . والذى كانت
حياته هروبا لا ينتهى أبدا . . . فتنهدت .

وتطلع اليها قائلا :

— ماذا فى الأمر ؟

قالت :

— انه انت . انت الذى تركت علبة التبغ فى

حجرة نومي ، وكتاب رونسار • وأنت الذي نمت في
سريري •

فواجهها مبتسما ، مسرورا من اختيارها
لل كلمات ، ومبتسما أيضا من دهشتها ، واضطرابها •
وقال :

– هل تركت هذه الأشياء هناك • لقد نسيت •
لكم يبلغ خطأ واستهتار وليم اذ لم يلحظ ذلك •

قالت :

– لقد كان من أجلك بقاء وليم في نافرون •
كما أنه طرد كل الخدم من أجلك • وطوال تلك
الشهور التي كنا خلالها في لندن كنت أنت في
« نافرون » ••

قال :

– لا • ليس كل الوقت • بل من حين لآخر •
فأثناء الشتاء ، كما تعرفين ، يكون الجو رطبا هنا في
الخليج • وأن تغييره تغييرا رائعا ، هو الانتقال إلى

حجرة نومك المريحة • وعلى أية ، فقد شعرت دائما
أنك لن يهيك الأمر •

واستمر ينظر اليها ، ونظرة السرور الخفى تشع
دائما فى عينيه • • وقال :

— لقد سألت صورتك ، كما تعرفين • وتحدثت
اليها مرات عديدة • وقلت ، يا سيدتى (لأننى كنت
متواضعا جدا) ، هلا كنت من العطف بحيث تسمحين
لرجل فرنسى متعب بأن يستمتع باستخدام سريرك ؟
ولقد بدا لى أنك انحنبت برشاقة وسمحت لى • بل
لقد ابتسمت فى بعض الأحيان •

قالت :

— كان ذلك خطأ كبير منك • غير لائق تماما •

قال :

— أعرف ذلك •

— كما انه كان خطيرا •

— ذلك هو الممتع فى الأمر • •

– لو كنت قد عرفت

– ماذا كنت تفعلين ؟

– لأتيت الى « نافرون » في الحال !

– ثم ماذا ؟

– ولكنك قد أحطت البيت بسور من القضبان

ولطردت « وليم » • ولاقمت حراسة على الأرض •

– كل ذلك •

– أجل •

– لا أصدقك •

– لم لا ؟

– لأننى عندما أرقد فى سريرك ، شاخصا بعينى

الى صورتك ، أعلم انك ماكنت تتصرفين هكذا •

والآن يتعين عليك أن تعودى ، اذ سيتساءل الطفلان

عما حدث لك !

قالت :

– أجل .

فتقدم ليقود طريقها الى سطح السفينة . وانحنى
على الحاجز . ونادى مستدعيا الرجال الذين على
السطح الأسفل .

قال :

– أولا يجب ان أعرفهم بك .

وأصدر أمرا بلغة أهل « بريتاني » التي
لم تستطع ان تفهمها ، وفي لحظة كان الرجال كلهم
هناك ، يتطلعون اليها في فضول .

قال :

– اننى أنوى ان أخبرهم انك من الآن فصاعدا
تستطيعين المجيء الى الخليج دون أن يستوقفك أحد ،
فأنت حرة فى أن تأتى وتذهبنى كما يحلو لك .
الخليج ملكك . والسفينة ملكك . وأنت واحدة منا .

وتحدث لحظة ، عندئذ جاءوا اليها واحدا واحدا .
وانحنوا بالتحية ، وقبلوا يدها ، فابتسمت لهم ،
قائلة :

– أشكركم .

كان هناك نوع من الجنون فى الهواء حريّة
ضاحكة ، أشبه بحلم . وفى الماء بالأسفل ، كان أحد
الرجال فى انتظارها داخل القارب . فقفزت على جانبه
حتى السلم . ولم يساعدها الرجل الفرنسى ..
وانحنى على الحاجز مراقبا اياها .

قال :

– وبيت « نافرون » ؟ أهو محاط بالقضبان ؟
وهل يجب أن يطرد وليم ؟

قالت : .. لا !

قال :

– يجب أن أرد زيارتك ، اذن ، من قبيل المجاملة .

قالت :

- أجل

- ليلتك سعيدة !

- ليلتك سعيدة !

واستمر واقفا ازاء الحاجز ، يراقبها ، وهم
يصحبونها الى ضفة النهر فى القارب الصغير ، كانت
الشمس قد غربت خلف الأشجار ، والخليج يرتع فى
الظلال ، وبدت السفينة كأنها سفينة خرافية من صنع
الأحلام واستدارت وأسرعت الخطى خلال الأشجار ،
وهى تبتسم لنفسها شاعرة بالذنب ، مثل طفل يخفى
عن الآخرين سرا .

وعندما وصلت الى البيت ، رأت أن « وليم »
كان واقفا بالقرب من نافذة حجرة الاستقبال . كان
يتظاهر بأنه يرتب الحجرة وينظفها ، ولكنها عرفت
فى الحال أنه كان يترقب مجيئها .

والطريف أنها لم تخبره فى الحال . وقالت وهى
تدخل الحجرة وتنزع المنديل عن رأسها :

ـ كنت أتمشى يا « وليم » .

قال :

ـ أجل يا سيدتى .

ـ لقد سرت بجوار النهر ، حيث الهدوء
والطراوة .

ـ حقا يا سيدتى .

ـ لم تكن لدى معرفة بالخليج من قبل . انه
مكان بهيج مكان صالح للاختباء يا وليم . لاختباء
الهاربين أمثالى .

ـ من المحتمل جدا ، ياسيدتى .

ـ اننى انتظر استقبال زائر يا وليم .

ـ بالطبع يا سيدتى .

وعند هذا انفجرت ضاحكة :

— أوه يا وليم • يا وليم الجهم الوقور ، اذن
فقد خمنت ! كيف عرفت •

— كان هناك شيء فى طريقة سيرك ، مثلما
دخلت الآن ياسيدتى • وكانت عيناك — اذا أمكننى
أن أقول دون أن يكون فى قولى ما يسيء — تتألقان
بالحياة ، ولما كنت قد أتيت من اتجاه النهر ، فأننى
كنت قادرا على أن أرى سببا لهذه الأشياء ، وقلت
لنفسى : « لقد وقع الأمر — والتقى أخيرا » •

— لماذا « أخيرا » يا وليم ؟

— لأننى يا سيدتى أوّمن بالقدر ، وقد عرفت
دائما أن اللقاء سوف يتم ان عاجلا أو آجلا • • !

الفصل الخامس

حدثت « دونا » نفسها قائلة : لن يحدث أبدا . .
لن يحدث أبدا . . أن أقوم بزيارة جيراني لا لأجل
خاطر ه هارى « ولا لاني أشعر أن من واجبي أن أقوم
بذلك . . وتظاهرت بأنها مهتمة بكلب مدلل صغير
بالقرب من قدميها ، وأعطته خفية قطعة الكعك الجافة
التي اضطرها ه جودولفين « الى أن تتقبلها منه .

وابتسمت الى السيدة « جودولفين ، الراقدة
مستندة الى بعض الوسائد بينما كانت أفكارها سارحة

فى مكان آخر • فقد رأت بعينى خيالها القارب الذى
قد يكمن فى انتظارها عند الخليج •

ورأت الرجل ، ومعطفه ملقى جانباً ، وهو يرتب
شباك الصيد فى قاع القارب •

وعرفت « دونا » أنها موضع مراقبة « توماس
أويستيك » من الجانب الآخر من الحجرة • وهو رجل
نحيل الشفتين ضيق العينين • • و « روبرت بنروز »
من تريجونى ، الذى تعرفت عليه من قبل ، وقد شرعا
يقبلان نحوها •

قال أويستيك :

— لقد أخبرك « جودولفين » ، فيما أعتقد ، بمدى
ما يهددنا من جهة البحر •

فابتسمت « دونا » قائلة :

— من رجل فرنسى دائم الهروب •

فاجاب أويستيك :

— والذى قد لا يتمكن من الهرب ثانية •

- حقا ؟ هل أرسلتم في طلب مزيد من الجنود
من بريستول ؟

فاحمر وجهه ، ووجه الى « جودولفين » نظرة
غاضبة وقال :

- لن تكون هناك حاجة الى الجنود هذه المرة .
لقد كنت ضد هذه الفكرة منذ البداية ، ولكن ثمة
اناسا آخرين ظنوا أنهم أحسن معرفة بالأمر ، اننا
ننوى أن نتعامل مع هذا الأجنبي بأنفسنا ، واعتقد أن
طريقتنا في العمل سيحالفها التوفيق ..

قال « جودولفين » بجفاء :

- اذا اتحد منا عدد كاف .

وقال « بنروز » :

- واذا ما أخذ خيرة الرجال دور القائد علي
عاتقه .

وسادت هنيهة صمت ، وتطلع الرجال الى بعضهم
بعضا بارتياح . وقالت « دونا » :

- واحد ضد كثيرين • فمن الطبيعي أن يظفروا به • وما هي الخطة التي وضعتها للقبض عليه ؟

قال اويستيك :

- انها ما زالت خطة غير واضحة المعالم ، ولا نستطيع بالطبع أن نوضحها • ولكنى يجب أن أنبهك الى أننا نشتبّه في أن بعض أهالى البلد فى الحى يساعدون الرجل الفرنسى •

- انك تثير دهشتى !

- انه أمر لا يغتفر بالطبع ، واذا وجدنا أنه حق ، فأننا سنشنقه بالطبع ، مثلما سنفعل مع الفرنسى • والحقيقة أننا نعتقد أن الفرنسى لديه مكان يختبئ فيه بناحية من الساحل ، ونعتقد أن بعض أهالى البلد لابد أنهم يعرفون أين يكون موقعه ، ويلزمون الصمت •

- هل قمتم ببحث شامل •

- اننا يا سيدتى العزيزة نبحث عنه دائما •

ولكن كما يجب أن تكونى قد سمعت ، الرجل عسير
امساكه كأنه ثعبان ، ويبدو أنه يعرف ساحلنا بطريقة
أفضل مما نعرفه نحن أنفسنا . انك ، فيما أظن ، لم
ترى أى شىء يشير الاشتباه حول « نافرون » .

– لا شىء اطلاقا !

– ان لديك مجالا طيبا للرؤية من البيت ، أليس
كذلك ؟

– مجال ممتاز للرؤية .

– فاذا ما دخلت سفينة غربية الى النهر أو
غادرته ، أمكنك رؤيتها طبعاً .

– بلا شك .

– لست أريد أن أخيفك ، ولكنه من الممكن
كما تعرفين ، أن يكون الفرنسى قد استخدم « هلفورث » ،
فيما مضى ، وقد يستخدمه ثانية .

– انك تملؤنى خوفا !

– ويجب أن أحذرك بأنه ليس من النوع الذى
يعامل الغير باحترام .

– أتقصد أنه ليس له ضمير على الإطلاق ؟

– أخشى ذلك .

– ورجاله قساة متوحشون بشكل مخيف .

– انهم قراصنة ، يا سيدتى ، كما أنهم
فرنسيون !

– اذن . سأأخذ احتياطا شديدا . هل تعتقد
أنهم يأكلون الأطفال ، أيضا ؟ فان ابنى الصغير لم يبلغ
السنتين بعد .

فأطلقت السيدة « جودولفين » صيحة خفيفة ،
وأخذت تستخدم مروحتها بسرعة . وأصدر زوجها
صوتا ينم عن الضيق ، قائلا :

– خفى من روعك يا لومى ، فان السيدة سانت
كولب كانت تمزح ، طبعاً .

واردف قائلا :

– لكن يجب أن أخبرك .

وتحول الى « دونا » ثانية وواصل حديثه :

– أن الأمر خطير ، ويجب ألا يعالج على أنه نكتة ،
اننى أشعر بمسئوليتى عن أهالى هذا الحى ، ولا أكتمك
اننى أشعر بالخوف عليك لأن « هارى » غير موجود
معك .

فنهضت « دونا » واقفة ، وهى تمد يدها وقالت
وهى تبسم له ابتسامة خاصة :

– انه لعطف شديد منك . ولن أنسى عطفك .
ولكن لا داعى للقلق . . . وإذا كان من الضرورى فاننى
أستطيع أن أحصن بيتى . وأما وحولى جيران أمثالكم
ونقلت نظرها من « جودولفين » الى « أويستيك »
ثم الى « بنروز » قائلة :

– . . . فانى أعرف أن ليس ثمة أذى يمكن أن
ينالنى . فأنتم الثلاثة جميعا أقوىاء العزيمة لا تحيدون

عن هدفكم ويمكنني أن أقول أيضا أنكم شديدو
الصلابة .

وانحنى الرجال الثلاثة كل بدوره على يدها
مقبليين ، فابتسمت لكل منهم قائلة :

— ربما يكون الفرنسي قد ترك الساحل الى
الأبد ، ولا يعود هناك ما يقلقكم بخصوصه !

قال « اويستيك » :

— أتمنى لو أننا نستطيع أن نعتقد . ولكننا بدأنا
نعرف هذا المجرم . . . فهو يكون دائما أشد خطورة
عندما يكون أشد هدوءا . . . وهو سيضرب ضربة أخرى
قبل أن ينقضى وقت طويل .

واضاف « بنروز » قائلا :

— ولكنها ستكون المرة الأخيرة !

قال « اويستيك » ببطء :

— سيكون من دواعي سروري الخاص أن أشنقه
على أطول شجرة في حديقة « جودولفين » .

وتولى « جودولفين » توصيل « دونا » الى عربتها .
وسألها وهو يتطلع الى « ولیم » :

— هل يحسن رجلك قيادة العربة ؟

قالت « دونا » وهى تدخل الى العربة :

— تماما . انى أأتمنه على حياتى .. هيا بنا
يا « ولیم » !

ولوحى بيدها الى لورد « جودولفين » فيما هى
تنحنى وتبتسم من عربتها المكشوفة .

وعبرت العربة الميدان الطويل حتى غادرت
البوابات . فخلعت « دونا » قبعتها وروحت بها عن
نفسها . ثم تطلعت الى ظهر « ولیم » المتصلب وضحكت
خفية . وقالت :

— لقد تصرفت تصرفا سيئا يا « ولیم » .

— أحقا يا سيدتى ؟

— كان هناك رجل يدعى « أويستيك » وآخر

يدعى « بنروز » .

– أجل يا سيدتى ..

– ولم ارتح لكليهما ..

– أجل يا سيدتى ..

– حقيقة الأمر يا « وليم » أن هؤلاء الناس قد بدأوا يستيقظون .. فقد كان هناك كلام كثير عن القراصنة ، وكلام أيضا عن خطط للقبض على القراصنة ، وكلام عن الاتحاد ، وعن التعليق شنقا على أطول شجرة . وتدور شكوكهم حول النهر .

– لقد عرفت أن المسألة مسألة وقت فحسب ،
يا سيدتى .

– أظن أن سيدك يعرف شيئا عن الخطر المحدق
به ؟

– أظن ذلك يا سيدتى .

– ورغم هذا لا يزال مبقيا سفينته فى الخليج ؟!

– أجل يا سيدتى ..

- لقد مكث هنا ما يقرب من شهر . أيمكنك دائما وقتا طويلا هكذا . . كم من الوقت تدوم زيارته ؟
- خمسة أيام أو ستة يا سيدتى .
- لقد مر الوقت سريعا . لعله لم يتبين أنه قد مكث هنا طويلا .
- ربما لا .
- لقد بدأت أعرف قدرا كبير عن الطيور ، يا « وليم » .
- وهذا ما لاحظته يا سيدتى .
- كما أنني أصبحت خبيرة بأمور الصيد .
- لقد رأيت ذلك يا سيدتى .
- وان سيدك معلم رائع .
- يبدو ذلك يا سيدتى .
- انه لأمر غريب يا « وليم » ، اذ اننى قبل ان آتى الى « نافرون » ، لم أكن أفكر الا قليلا فى الطيور ، وأقل من ذلك فى أمور الصيد ؟

- - انه لأمر غريب يا سيدتى .
- - أظن أن .. أن الرغبة فى معرفة هذه الأشياء كانت موجودة دائما ، ولكن نائمة فى النفس ، لو فهمت ما أعنيه .
- - اننى أفهم ما تقصدين تماما يا سيدتى .
- - من الصعب على امرأة أن تكتسب بمفردها المعرفة بالصيد وبالطيور .
- - يبدو أنه من المستحيل ذلك . يا سيدتى .
- - ان المدرس ضرورى حقا .
- - بل لابد منه ، يا سيدتى .
- - ولكن يجب بالطبع أن يكون المدرس لطيفا .
- - هذا ضرورى ، يا سيدتى .
- - ومغرم بأن ينقل معلوماته الى تلميذه .
- - بالطبع يا سيدتى .

يا لوليم العزيز .. انه يفهم دائما !!

- آية قصة حدثت بها الناس في « نافرون » ،

يا « ولیم » ؟

- لقد قلت أنك تمكثين لتناول الغذاء لدى لورد

« جودولفين » ، وانك قد تتأخرين ، يا سيدتي .

- وأين ستبقى الجياد ؟

- لقد أعددت لكل أمر عدته . لدى أصدقاء في

الخليج يا سيدتي .

- وهم أيضا قد أخبرتهم قصة ؟

- أجل ، يا سيدتي .

- وأين سأغير ملابسى ؟

- أعتقد يا سيدتي أنه إن يضايقك التغيير خلف

شجرة .

- لكم ذلك لطيف منك يا « ولیم » . هل اخترت

الشجرة ؟

– لقد فكرت فى واحدة يا سيدتى .

وتحول الطريق الى اليسار ، وكانا بجوار النهر
ثانية . وكان يمكن رؤية الضوء فوق الماء من خلال
الأشجار . وأوقف « وليم » الجياد . ولزم الصمت
لحظة ، ثم وضع يده على فمه وأطلق صيحة الطائر
البحرى . . . فأتت صيحة مشابهة لصيحته من ضفة
النهر . وتحول الخادم الى سيدته وقال :

– انه ينتظرك يا سيدتى .

فجذبت « دونا » ثوبا قديما من خلف مقعد
العربة ووضعتة على ذراعها .

– أية شجرة تقصد ، يا « وليم » ؟

– تلك الشجرة العريضة ذات الأغصان الكثيفة
يا سيدتى .

– أياها الزن بآننى مجنونة ؟!

– هل سنقول أن الأمر ليس كذلك أبدا بالنسبة
لعقلك السليم ؟

– ان ما أنا فيه أقرب الى أن يكون شعورا غريبا ،
يا « ولیم » .

– وهكذا فهمت الأمر دائما يا سيدتى .

– يكون المرء سعيدا دونما سبب .

– تماما يا سيدتى .

ونزعت « دونا » ثوبها الحريري فى حمى شجرة
ضخمة ووضعت ثوبها الآخر ، وهى تضحك فى نفسها .
بينما أفلت شعرها وتهدل الى الأمام مقطيا وجهها .
وعندما أصبحت مستعدة : ناولت الثوب الحريري الى
« ولیم » ، الذى كان واقفا وقد أدار وجهه بعيدا فى
اتجاه رؤوس جياده .

– سينزل هابطين النهر مع المد يا « ولیم » .
وسأصعد الى « نافرون » من الخليج .

– أجل ، يا سيدتى .

– سأكون فى الميدان بعد وقت وجيز . بعد
العاشرة يا « ولیم » .

- - أجل ، يا سيدتى .
- - ويمكنك أن تأخذنى الى البيت فى العربة كما لو كنا راجعين من عند لورد « جودولفين » .
- - أجل ، يا سيدتى .
- - ما الذى يدعوك الى الابتسام ؟
- - لم أعتقد أن وجهى أظهر أى تعبير غير عادى ، يا سيدتى .
- - انك كذاب . . الى اللقاء .
- - الى اللقاء يا سيدتى .
- ورفعت ثوبها القديم عن الأرض ، ثم جرت حافية القدمين خلال الأشجار الى القارب الذى كان ينتظر بأسفل ضفة النهر .

الفصل السادس

كان الفرنسى يثبت دودة فى السنارة ، ويتطلع
مبتسما حين قال :

– لم تتأخرى كثيرا .. !

– ليس لدى مرآة تعوقنى .

قال :

– انك تفهمين الآن مدى ما تصبح الحياة من

سهولة عندما ينسى المرء أشياء مثل المرآة .

فخطت بجواره هابطة الى القارب . وقالت :

- دعنى أثبت الدودة فى الشص .

فناولها السنارة ، وتناول المجدافين وسحب القارب الى عرض النهر ، وهو يراقبها . كان جفناها مسبلين ، مولية كل انتباهها الى عملها . وتحركت الدودة ، وانغرز الشص فى أصبعها . فشتت بصوت خافت ، وفيما هى تتطلع ناظرة ، رأت أنه كان يضحك منها .

قالت غاضبة :

- لا أستطيع أن أفعل هذا . . لماذا لا تصلح المرأة فى أمثال هذه الأمور .

قال :

- سأقوم به بدلا منك حالا ، عندما نأخذ طريقنا هابطين الى النهر .

قالت :

- ولكن تلك ليست المشكلة . اننى أريد أن
نجزه بنفسى ولن أنهزم .

فلم يحرجوا ، بل أخذ يصفر لنفسه برقة ،
ولأنه توقف عن النظر اليها ، وشرع يرقب طائرا يطير
بالقرب منهما ، دون أن يقول لها شيئا ، أخذت تعمل
ثانية . وبعد دقيقة صاحت وقد غمرتها السعادة :

- لقد أنجزت الأمر . انظر ، لقد أنجزته .

ودفعت سنارتها اليه كى يرى ، فقال :

- حسنا . انك تتقدمين

وفيما هو منحني على المجذافين ، ترك القارب
ينساب هابطا النهر مع التيار . وبعد فترة من الوقت
ألقي كل منهما بسنارته الى الماء .

وشردت أفكار « دونا » . وراقبت زميلها ، وهى
تأمل ملامح وجهه ، وقوة كتفيه ، وشكل يديه .

ها هو ذا بكل عقله مستغرق فى الصيد ، بينما على بعد
أدبىال قليلة كان هناك رجال قد خططوا للقبض عليه
والحكم عليه بالموت . بل وحتى فى هذه اللحظة ، ربما
كان خـدم « أويستىك » « بنرور » و « جودولفين
يسألون أسئلة بامتداد الساحل وفى القرى الصغيرة
قرب النهر .

قال بهدوء ، مقاطعا أفكارها :

– ماذا فى الأمر ؟ أتريدىن المزيد من الصيد ؟

قالت :

– اننى أفكر فيما جرى هذا المساء .

– أجل . عارف . أمكننى أن أرى ذلك فى
وجهك . اخبرينى بخصوصه .

– يجب أن لا تبقى هنا بعد الآن . لقد بدأوا
يرتابون . وجميعهم يتحدثون عنك ، فرحين لانهم
يعتقدون أنهم على وشك الظفر بك .
– ذلك أمر لا يقلقنى .

– أعتقد أنهم جادون .. ففي عيني «أويستيك»
نظرة تصميم قاسية.. وهو ليس غبيا مثل «جودولفين»
.. كما أنه ينوى تعليقك على أطول شجرة في حديقة
«جودولفين» .

– حسنا ، تلك علامة على الاحترام ، قبل كل
شيء .

– أنت الآن تسخر مني .
واستأنفا صيد السمك ..

قالت «دونا» :

– متى سنشعل نارنا ؟

فاجاب :

– عندما نصيد ما يكفي لعشائنا
– ولنفرض اننا لم نصطد عشاء .
– اذن . لن نستطيع ان نشعل نارنا .

وبدا لها ، وهما جالسان هناك متقاربين ، صامتين ، كأنها لم تعرف السلام من قبل . فكل الشياطين التي لا يقر لها قرار بداخلها قد هدأت بهذا السكوت وبسبب قوة زميلها الهادئة . لقد شعرت كما لو أنها قد وصلت الى مكان قد عرفته دائما ورغبت فيه من أعماقها ، ولكنه ضاع منها بسبب استهتارها ، أو لأن الأمور قد سارت سيرا خاطئا على نحو ما . لقد عرفت أن هذا المكان هو ما كانت تريد عندما أتت هاربة من لندن ، وانها ما قدمت الى « نافرون » الا لتجده . ولكنها علمت أيضا انها لم تجد منه بمفردها الا جزءا فحسب ، من خلال الغابات والسماء والنهر . وإنما أصبح المكان ملأنا وكاملا عندما كانت معه ، مثلما كانت هي الآن ، أو عندما كان يخطر ببالها .

ورأت فجأة أنه يجذب سنارته . فانحنيت في اتجاهه ، وكتفها يلمس كتفه ، وهتفت بحماس
قائلة :

- هل اصطدت شيئا ؟



هل اصطدت شيئا .. ؟

قال :

- أجل . هل تريد أن تجذبى الصيد ؟

قالت ولكن بشيء من الحزن :

- لن يكون هذا عدلا . فالصيد صيدك .

وناولها السنارة وهو يضحك ، فرفعت السمكة
وهي تكافح من أجل حياتها الى حافة القارب ثم الى
ألواح القاع الخشبية ، حيث قفزت وألقت بنفسها
جانبا وقد اشتبكت بخيط السنارة الملتوى . فركعت
وأمسكت بها بين يديها ، وقد ابتل ثوبها تماما وعلاه
الطين من النهر ، وتهدل شعرها على وجهها ، وهي
تحاول أن تنزع الشص من فم السمكة .

قالت :

- يا للسمكة الصغيرة المسكينة ، انها تموت

اننى أوذيها . ماذا سأفعل ؟

وتحولت اليه فى أسف عظيم ، فجاء وركع
بجوارها آخذا السمكة من بين يديها نازعا الشص بحركة

مفاجئة سريعة . ثم وضع أصابعه فى فمها وثنى الرأس ،
بعيث ناضلت السمكة لحظة ، ثم رقدت ميتة .

قالت بحزن :

_ لقد قتلتها !

قال :

_ أجل . ألم يكن هذا ما أردتني أن أفعله .

فلم تحر جوابا . والآن وقد هدأت أعصابها ،
تبينت لأول مرة كم كان قريبا منها ، وكتفاهما
متلامسان ، ويداه بجانب يديها . كان يتسم ثانية
بطريقته الخفية الصامتة ، وأفعمت فجأة بدفء لم تعرفه
من قبل ، برغبة جسورة ، لا حياء بها لأن تزداد منه
اقترابا ، وشفته تلامسان شفتيها وذراعا تطوقانها .
وحولت نظرها بعيدا عنه ، بعيدا عبر النهر ، وقد
أسكتها اللهب الجديد الذى ظهر الى الحياة فى قلبها
خائفة من أن يقرأ النداء فى عينيها ويهون لديه شأنها .
وعندما استردت هدوءها ، نظرت اليه من فوق

كتفها ورأت أنه قد ربط أجهزة الصيد ، متنزلولا
المجذافين بين يديه • وقال :

ـ أشعرين بالجوع ؟

فاجابت وصوتها متردد ، كأنه ليس صوتها :

ـ أجل !

ـ اذن فلنشعل نارنا ونطهو طعامنا •

كانت الشمس قد غربت الآن ، وأخذت الظلمة
تزحف على الماء • وكان مد الماء سريعا وجذب القارب
خارج النهر حتى عرض اليم بحيث ساعدهما التيار على
الهبوط بهما فى النهر •

ووصلا بعد فترة من الوقت إلى فتحة الخليج ،
حيث تزاحمت الأشجار على حافة الماء ، وأبحرا فى
الفتحة الضيقة ، حتى وصلا إلى حيث كان هناك يوما
مكان ترسو فيه السفن • وتوقف عن التجديف ، ودفع
مقدمة القارب فى الطين الرخوة ، وصعد إلى الشاطئ
وربط القارب فى صخرة ، ثم تناول مطواته ، وفيما هو

راكع بجانب الماء نظف السمكة ، مناديا من فوق كتفه
على « دونا » كى تشعل النار .

ووجدت بعض الأفرع والأعشاب الجافة تحت
الأشجار ، وكسرتها على ركبتها ، كان ثوبها قد تمزق
الآن ، وتكسر وتلوث بالطين ، وفكرت وهى تضحك
بداخلها ، فى لورد « جودولفين » وفى زوجته . فلو
تمكننا من رؤيتها . لتطلعا اليها بعينين مشدوهتين
استغرابا وحيرة . فالسيدة سانت كولب مثل فتاة
شحاذة هائمة على وجهها ، وبصحبة قرصان أيضا .

وأقبل عليها صاعدا من حافة الماء ، وقد نظف
السمكة ، وركع بجوار النار ، وأشعلها . فاشتعلت
ببطء أول الأمر . . ثم ازداد اشتعالها ، وتطلعا الى النار
وتبادلا الضحكات .

وسالها :

– هل طهوت مرة سمكا فى العراء .

فهزت رأسها نفيا ، وأفسح مكانا ضئيلا بين
الرماد ، ووضع حجرا مسطحا فى المنتصف ، ووضع

السمة عليه . ونظف ، سكينه وانتظر دقائق قليلة حتى بدأ لون السمة يضرب الى الاسمرار . ثم قلبها بسكينه ، بحيث تصلها الحرارة بسهولة أكثر . كان الجو هنا فى الخليج أشد عتمة مما كان فى عرض النهر ، وكانت الأشجار تلقى ظلالا على المرسى . وراقبت دوناً يديه ، وهما مشغولتان بالسمة ، وتطلعت الى وجهه . كان قد ركز كل انتباهه على طهيه ، وقد التقى حاجباه التقاء خفيفا ، واحمر وجهه بفعل الضوء المنبعث من النار . وبلغت رائحة الطعام الطيب أنفها وأنفه فى وقت واحد ، ونظر اليها وابتمسم ، دون أن يقول كلمة ، ثم قلب السمة مرة أخرى الى النار .

وعندما رأى أن لونها قد اسمر بما فيه الكفاية دفعها بسكينه وقطعها حتى المنتصف وحرك نصف السمة الى جهتها ، مناوذا إياها السكين . وأخذ النصف الآخر بين أصابعه وشرع يأكل ، وهو يضحك منها وهى تفعل مثله

وأخيرا عندما أصبح العشاء من الذكريات أخذت

النار تتكسر وتخبو . . وانخفضت ألسنة اللهب .
وابيض وجه الرماد . وقال :

– غدا يجب أبدأ التخطيط ثانية .

فتطلعت اليه ، ولكن لم يعد يشع عليه ضوء
النهار . فلم تستطع ان تراه بوضوح .

قالت :

– تقصد انك يجب ان تهرب ؟!

فاجاب :

– لقد بقيت عاطلا وقتا طويلا . والفلطة تقع على
الخليج . لقد أصبحت مغرما به للغاية . لا . سيكون
لدى صديقك اويستيك وجودولفين شيء يفكران فيه .
وسأرى ما اذا كان بمقدورى أن أحبط خططهما .

– هل تنوى أن تفعل شيئا خطيرا .

– بالطبع .

– هل ستقيم مرسلة أخرى على الساحل ؟

- من المحتمل جدا .
- وتغاطر باحتمال القاء القبض عليك وقتلك .
- أجل .
- قد يكون الأصوب أن تبهر عائدا الى «بريتاني»
- أصوب جدا .
- فانه لم تفعل فقد تقود رجالك الى خطر عظيم .
- لن يبالوا .
- وقد تتحطم السفينة لامويت بدلا من أن ترسو
- آمنة بميناء آمن في بريتاني .
- لم تبين لامويت كى ترسو ساللة في ميناء آمن
- ونظر كل منهما الى الآخر عبر الرماح ، والتقت
- عيناه بعينيها لحظة طويلة ، وثمة ضوء بهما أشبه
- باللهيب الذى كان ينبعث من النار ، وأخير استلقى
- جانبا وقال :

– من المؤسف أنك لمحت ولدا • اذن لاستطعت
ان تاتى معى •

– ولماذا يجب ان اكون ولدا لكى أفعل ذلك ؟

– لأن النساء اللاتى يخشين قتل سمكة من من
الرقه بحيث لا يصلحن لسفن القراصنة •

فراقبته لحظه وهى تعض طرف اصبعها ،
قالت :

– اتصدق ذلك حقا ؟

– بالطبع

– هلا تركتلى اذهب معك هذه المرة كى أثبت لك
أنك مخطئ

قال :

– ألن يصيبك دوار البحر ؟

– كلا •

- ستشعرين بالبرد ، والعناء ويسنولى عليك
الخوف .

- أبدا

وتطلعت اليه غاضبة ، ونهض واقفا فجأة . . !
وضحك ، وهو يركل بقدمه بقايا النار ، بحيث
أطبقت عليهما حلقة الليل .

قالت :

- بكم تراهن على اننى سأمرض وأشعر بالبرد
والخوف .

قال :

- الأمر يتوقف على ما يجب أن يقدمه كلا منا
للآخر .

قالت :

- هذا القرط الذى بأذنى . يمكنك أن تأخذ
قرطى المصنوع من الياقوت .

قال :

— حقا ، ذلك قد يكون جائزة حقيقية • لو ملكتهما
لما عادت بى حاجة لأن أكون قرصانا • وماذا ستطلبين
إذا كسبت الرهان ؟!

قالت :

— أنظر • دعنى أفكر !

وفيما هى واقفة فى صمت بجانبه لحظة ، خافضة
بصرها الى الماء خطر لها فكرة فجائية عنيفة وضجكت
قائلة :

— بعض شعرات من شعر جودولفين المستعار !!

— بل سيكون عندك شعره المستعار كله •

قالت وهى تستدير وتهبط الى القارب :

— حسنا • اذن لن نحتاج الى بحث الأمر أكثر من

ذلك • فكل شئ جاهز •

— منى منرحل ؟ •

- عندما ادبر خططى

- هل ستبدأ العمل غدا ؟

- سأبدأ العمل غدا

- سأحرص على ألا أضايقك . وأنا أيضا يجب أن

أعمل خططى . أعتقد انه سيتعين على أن ادعى المرض

والزم الفراش . وسيكون المرض نوعا من الحمى

بحيث لا تقدر الوصيصة ولا الأطفال على دخول الحجرة

وسيتولى خدمتى وليم وحده . وفى كل يوم يحمل وليم

المخلص العزيز الطعام والشراب الى سيدته المريضة التى

لن تكون هناك .

- ان لك عقلا نشطا .

فخطت الى داخل القارب ، وجدف فى سكون صاعدا

فى الخليج حتى تمكنا من رؤية شكل سفينة القرصان المعتم

خلال الظلام . وناداهما صوت من السفينة ، فأجابه

بلغة أهل « برتاني » ، ثم تجاوز السفينة حتى وصل

بالقارب الى المرمى عند رأس الخليج

وسارا خلال الغابات بدون أن ينطقا بكلمة

فلا شك أن وليم يقف فى الميدان منتظرا اياها

قال الفرنسي :

– أتعشم أن تكونى قد استمتعت بطعامك مع اللورد جودولفين .

فاجابت :

- كثيرا جدا .
- ولم تكن السمكة سيئة الطهو ؟
- كانت السمكة رائعة .
- لن تحتاجى لأن تأكلى عندما تذهبين الى البحر .
- أخطأت فى هذا . فهواء البحر سيصيبنى بالجوع الشديد
- سيتعين على أن أبحر مع الرياح والد . أتدركين ذلك ؟ ان هذا يعنى الرحيل قبل الفجر
- خير وقت من النهار .
- ربما تعين على أن أرسل فى طلبك فجأة – دون سابق انذار .

— سأكون مستعدة !

واستمررا فى سـيرهما خلال الأشجار ، وعندما
وصلا الى الميدان أبصرا العربة فى الانتظار ووليم واقفا
بجوار الحيات ٠٠ !

الفصل السابع

كان وليم هو من أيقظها . . وهو الذى هز كتفها
وهمس فى أذنها قائلاً :

— سامحيني يا سيدتى . . ولكن سيدى أرسل
كلمة منذ لحظة . وسوف تبحر السفينة فى أقل من
ساعة .

نهضت دونا جالسة فى الفراش فى الحال ، وقد
اختفت لديها مع كلماته كل رغبة فى النوم . وقالت :

- أشكرك يا وليم . سأكون جاهزة خلال عشرين دقيقة . كم الوقت الآن . . ؟

- الرابعة الا الربع يا سيدتى !

وترك الحجرة . وراة دونا وهى ترفع الستائر أن الوقت لا يزال ظلاما . فأخذت ترتدى ملابسها بسرعة ، وقلبها يخفق من الهياج ، وهى تشعر شعور طفل يندفع فى مغامرة محرمة .

كان قد مر عليها خمسة أيام منذ أن تناولت عشاءها مع الفرنسى فى الخليج ، ولم تره منذ ذلك الحين . ثمة شىء حدثها بأنه يحب أن يكون بمفره عندما يعمل ، فتركت الأيام تمر دون أن تسير خلال الغابات حتى النهر ، بل ودون أن ترسل اليه رسالة مع وليم

كانت تعرف أنه سيرسل فى طلبها عندما يفرغ من وضع خطته . فلم يكن الرهان هزلا لا معنى له تم خلال ليلة من ليالى الصيف ، ويلزم نسيانه قبل اشراق الصباح لقد كان اتفاقا صريحا يتعين عليه

احترامه ، وكان فى نفس الوقت اختبئارا لقوتها
وشجاعتها . كانت تفكر أحيانا فى هارى ، اذ هو صادر
فى حياته فى لندن .

يركب الجياد ، ويلعب الورق ، ويرتاد بيوت
الشراب والمسارح بصحبة « روكنجهام » . كانت الصور
التي وردت الى ذهنها صورا من عالم آخر ، عالم لم
تكن له أية صلة بعالمها الآن . كانت صورا تنتمى الى
ماضى قد مات وولى بعيدا ، كما ان هارى قد أصبح
شخصا خياليا ، روحا من الماضى يذرع خطاه فى زمن
آخر . حتى هى نفسها تغيرت . لقد اختفت الى الأبد
دونا التي تعرفها لندن .

دقت ساعة الفناء معلنة الرابعة ، وأخذت دونا
الجديدة طريقها خلسة وقد وضعت ثوبا قديما قصدت
ان تلقى به لاية امرأة فقيرة من ساكنى الأكواخ ، ونزلت
درجات السلم الى قاعة الطعام ، حيث كان وليم ينتظرها
حاملا شمعة فى يده .

- بير بلان بالحارج فى الغابات يا سيدتى .

– أجل ، يا وليم .

– سأعتنى بالبيت أثناء غيابك يا سيدتى ، وانتبه

الى أن « برو » لا تهمل العناية بالطفلين .

– انى أثق كل الثقة فيك يا وليم .

– اننى انوى أن أخبر الموجودين بالبيت هذا

الصباح انك متوقعة يا سيدتى – أملت بك حمى طفيفة –

ولما كانت مرضا معديا ، فقد رأيت أنه يجب منع الأطفال

والنساء من الاقتراب من حجرتك . وانك أصدرت

الأوامر بأن أقوم أنا بخدمتك بنفسى .

– رائع يا وليم . ووجهك البالغ الجهامة سيكون

لائقا تماما بالمناسبة . انك ، اذا أمكنتى القول ، مخادع

بالسليقة .

– لقد أخبرتنى النساء بذلك من حين لآخر .

– يمكنك أن تعنف « برو » إذا أردت . فهى

كسولة فى بعض الأحيان .

– سأفعل ذلك .

- وكن حازما مع الأنسة « هنرييتا » اذا أفرطت
فى الكلام .

- أجل ، يا سيدتى .

- واذا ألح جيمس فى الحصول على زيادة من
فاكهته المفضلة .

- يتعين على أن أعطيه يا سيدتى .

- والآن يجب أن أذهب .. هل كنت تتمنى لو
تذهب معى .. ١٩

- لسوء الحظ يا سيدتى أن جوفى يبدى استياء
عند تحرك أية سفينة على سطح الماء .

- تعنى انك شديد الاحساس بدوار البحر .
حسنا ، الى اللقاء يا وليم !

- الى اللقاء يا سيدتى !

ومضت عبر الأعشاب الى الأشجار فى أثر
« بيربلان » مؤلف الاغانى ، بعينه المرحتين ووجهه

القائم الشبيه بوجه القرد وشقت طريقها هابطة خلال الغابات الى سفينة القرصان فى الخليج . .

وكانت قد توقعت على أية حال أن تجد اضطرابا ، وضضاء ، ورجال يجرون وهم يعدون أنفسهم للرحيل ، ولكنها عندما وصلا الى جوار « لامويت » . كان هناك السكون المعهود . فلم تتبين الا عندما صعدت السلم الى السطح وتطلعت حولها أن السفينة مستعدة للابحار ، فقد كانت الأسطح نظيفة ، وكان الرجال واقفين فى أماكنهم ينتظرون الأوامر للاقلاع .

كان الفرنسى واقفا بجوار الرجل الذى يتولى عجلة القيادة . وكانت عيناه تلوران فى كل مكان ، وأوامره تصدر واحدا فى اثر الآخر ، واضحة ، ولا يشوبها تردد . لقد كان هذا رجلا مختلفا عن زميلها الذى كان على النهر . وفجأة شعرت كأن لاحق لها فى أن تكون هناك ، امرأة بلا نفع بين جمع من الرجال مشغولين بأعمالهم . فذهبت الى الحاجز ووقفت هناك بهدوء . بعيدا عن الطريق .

وأخذت السفينة تتحرك ببسطه ، كانت رياح
الصباح تأتي عبر التلال ، تملأ الأشرعة العظيمة ،
وأخذت «لامويت» طريقها بخفة زاحفة عبر الخليج ،
وخارج النهر ..

الفصل الثامن

لقد ظلوا طوال النهار فى عرض البحر ، دون أن تقع عيونهم على سفينة أخرى ، فى مهب رياح ثابتة جعلت « لامويت » تقفز وترقص كشئ نابض بالحياة . وعرفت دونا أن الخطة تقضى بالبقاء بمنأى عن رؤية الأرض حتى يسدل الليل ستوره ، ثم الزحف فى اتجاه الأرض تحت جناح الظلام .

وعند الظهيرة شعرت بجوع شديد . ووصلت اليها فى سطح السفينة الأسفل ، رائحة الخبز المحترق

الساخن والقهوة المرة السوداء . وسرعان ما رأت
بيربلان يصعد حاملا صينية . . فتناولتها منه وهي
تشعر بالخجل من اندفاعها ، أما هو - وقد أغمض إحدى
عينيه بود جعلها تضحك - فقد رفع عينيه الى السماء
ودعك معدته . وقال وهو يبتسم ابتسامة سعيدة :

- سيلحق بك القبطان حالا .

وفكرت كم كانوا كلهم مثل وليم ، يريدون أن
يكون كلاهما سويا ، وكيف قبلوا الأمر على انه طبيعي ،
وخفيف الوقع ، وجميل .

لقد انقضت على رغيف الخبز كحيوان جائع ،
وكان هناك زبد أيضا وجبن . . وسمعت وقع أقدام
خلفها ، وفيما هي تتطلع ، أبصرت خلفها قبطان
« لامويت » يبتسم لها . وجلس بجوارها ومد يده
الى رغيف الخبز ، وقال :

- تستطيع السفينة أن تعنى بنفسها . وعلى أية
حال هذا هو الطقس الذي تحبه . وستحافظ على

مسارها طول اليوم ، فلا تحتاج لغير لمسة اصبع على
عجلة القيادة من حين لآخر . اعطني بعض القهوة !

فصبت القهوة وبخارها يتصاعد ، وشربا بنهم ،
وكل منهما يراقب الآخر من فوق فنجاناه .

سألها :

— ما رأيك في سفينتي ؟!

— اعتقد انها سفينة الأحلام وكان لم تصنعها أيد
بشرية ، لأننى أشعر كأننى لم أكن أعيش من قبل . . !

— هذا ما شعرت به أنا أيضا عندما أصبحت
قرصانا . كيف حال الجبن ؟

— الجبن جاء من أرض الأحلام أيضا .

— ألا تشعرين بدوار ؟!

— لم أشعر من قبل بأنى أسعد حالا مما أنا الآن .

— تناولى من الطعام قدر ما تستطيعين ، لأنه لن

يكون هناك متسع من الوقت الليلة للطعام أتريدين
قطعة أخرى من الخبز ؟

- أجل ، لو سمحت .

- ستهب الريح على هذا النحو طول اليوم .
ولكنها ستهب خفيفة هذا المساء ، وسيتعين علينا أن
نزحف بجوار الساحل ، مستخدمين المد قدر ما نستطيع
هل تشعرين بالسعادة ؟

- أجل . . لماذا تسأل ؟

- لأننى سعيد أنا أيضا . اعطنى مزيدا من
القهوة !

سألت :

- هل تعرف ماذا تفعل السيدة سانت كولب
الآن ؟

- يسرنى أن أعرف !

- انها راقدة فى فراشها مصابة بصداع محموم .

وما من أحد يستطيع أن يدخل حجرتها عدا وليم .
خادمها الأمين ، الذي يحضر لها من حين لآخر قطعة من
الفاكهة ليخفف من الحمى التي تعانيها .

– وإذا كانت سانت كولب راقدة في الفراش
محمومة الآن . فمن تكون المرأة الجالسة على سطح
السفينة بجوارى ؟

– انها صبي السفينة ، أشد الأشخاص عدا
أهمية على سفينتك !

– ان صبي السفينة شخص جائع جدا . فقد أكل
كل الجبن ولم يبق من الرغبة الا ربه .
– انى آسفة . ظننت انك أنهيت تناول طعامك .
وهذا ما فعلته .

وابتسم صوبها ، فحولت نظرها عنه ، خائفة من
أن يقرأ ما بعينها .

وحوالى الساعة صباحا كانت السفينة تتجه
مقتربة من الساحل ، والفرنسى نفسه جالس الى عجلة

القيادة • فوقفت بجانبه فى مسكون ، وهى ترقب خط
الساحل الباهت على الأفق •

وقبل أن يمضى وقت طويل أصدر أمرا لرجاله ،
فبدأوا يتسلقون كالقروء متجهين صوب شراع القمة
المربع العظيم المقام بأعلى السفينة • وعندئذ رأت دونا
الشراع ينحل من روابطه ويتحول الى طيسات وهم
يطوونه بعناية واحكام •

قال لها :

— عندما تصبح السفينة من الأرض فى مرمى
البصر ، يكون شراع القمة هو أول شىء يمكن أن يراه
الانسان من الشاطئ • ولن يرخى الظلام سدوله قبل
ساعتين ولسنا نرغب أن يرانا أحد •

قالت :

— أعتقد انك تنوى أن تفعل شيئا بالغ الجنون
شديد الحماسة •

فاجاب :

— لقد أخبرتنى امك تريدن شعر جودولفين
المستعار .

فراقبته بطرف عينها . كان حادثا تماما . وكان
صوته ثابتا ، مثلما كان عندما ذهب معها للصيد على
النهر .

قالت :

— ماذا يوشك أن يحدث . ماذا تنوى أن تفعل ؟
فلم يحر جوابا فى الحال . وأصدر أمرا آخر الى
رجالہ واختفى شراع آخر .

قال بعد فترة من الوقت :

— هل تعرفين « فيليب راشليه » ؟

— لقد سمعت هارى يتحدث عنه .

— لقد تزوج شقيقة جودولفين . ولكن هذا
لا يهم . ان فيليب راشليه ينتظر سفينة قادمة من جزر

الهند . وقد سمعت عنها بعد فوات الوقت اللازم
للخروج والالتقاء بها . . أما والأمر كذلك ، فافنى أعتقد
أنها لابد قد وصلت خلال اليومين الأخيرين ، وفى نيتى
أن أمسك بها فى الميناء ، وأضع بعض رجالى على
سطحها وأجعلهم يبحرون بها الى الساحل المواجه .

— ولكن لنفترض أن رجالها فاقوا رجالك عددا .

— هذه احدى المخاطر التى يتعين على أن أحسب
حسابها دائما . الأمر المهم هو المفاجأة . وقد ساعدنا
ذلك دائما . .

وأصبح خط الساحل واضحا بالتدريج . كانوا
يدخلون خليجا واسعا . واستطاعت دونا أن ترى بعيدا
الى الغرب امتدادات من الرمل الأبيض ، تتحول الى
لون قاتم الظلال بمجىء الظلمة . كانت السفينة تبحر
شمالا ، فى اتجاه مرتفع اسود اللون يبرز فى البحر .

سال :

— ألا تعرفين أين تذهبين ؟

فأجابت :

— ١٠٠ —

فابتسم دون أن يقول شيئا ، وشرع يصفر بركة ،
مراقبا اياها وهى تفعل ذلك ، بحيث انها حولت نظرها
فى النهاية بعيدا عنه ، عالمة أن عينيها كانتا تخبرانه
عن أفكارها . وكانت عيناه أيضا تحملان معنى . كان
كل منهما يتحدث الى الآخر بدون كلمات . وأرسلت
نظرها عبر البحر الأملس الصافى فى اتجاه الأرض .
ووصلتها رائحة الأرض مع ريح المساء مزيجا من عشب
المرتفعات الدافئة ، والأشجار ، والرمل الدافئ حيث
شعت الشمس طول النهار — وعرفت أن هذه هى
السعادة ، وأن هذه هى الحياة كما تمننت دائما أن
تحياها . فعما قريب سيكون هناك خطر ، وهياج ،
وربما قتال ، وخلال كل شيء وبعده سيكونان معا ،
يصنعان عالمهما ، حيث لا شيء فيه يهم الا الأشياء التى
يستطيع كل منهما أن يمنحها للآخر — أى الجمال .
والسكوت ، والسلام . وعندئذ ، وفيما هى تمد ذراعيها

فوق رأسها وتبتسم ، وتتطلع خلفها ناظرة اليه من
خلف كتفها ، قالت له :

– الى أين نحن ذاهبان ؟

فاخبرها :

– أنا ذاهبان الى « فوى هافن » ، . . !

الفصل التاسع

كان الليل مظلمًا وممتد السكون . وكانت هناك نسمة من الريح قادمة من الشمال . ولكن هنا ، في حصى المرتفعات ، لم يكن من الممكن الاحساس بها . وكانت السفينة « لامويت » راسية بلا حراك في الخليج الصغير ، وبالقرب منها قامت المرتفعات العظيمة ، أشبه بالظلال ومن الصعب رؤيتها في الظلام .

كان الرجال قد تجمعوا على السطح الأسفل . وكان بمقدورهم أن تراههم وهم واقفون ، كتفا لكتف ،

وللمرة الأولى منذ أن بدأت المغامرة ، شعرت بلحظة من لحظات الشك . وبلمسة باردة من الخوف . لقد كانت هي دونا سانت كولب ، زوجة أحد كبار الملاك الانجليز ، وبسبب لحظة من لحظات الجنون ، انضمت الى عصابة من القراصنة الأجانب الخطيرين . وكان قائدهم رجلا لم يخبرها أبدا أى شىء عن نفسه ، أحبته بجنون دونما سبب ، حبا - لو توقفت لتفكر فيه بهدوء - لكوأها بحرارة الشعور بالمهانة . قد تفشل الخطة ، ويؤخذ هو ورجاله أسرى ، وهي معهم . ويمثلون جميعا للمحاكمة ، ولن ينقضى وقت طويل قبل أن يكتشف أحد الناس من هي . ولقد يأتى هارى فى عجلة من لندن !

واستطاعت أن ترى فى خيالها القصة بأسرها وقد أصبحت معروفة فى كل أنحاء البلد . ولسوف تتناقلها الأفواه بأسوأ الطرق ، ولسوف يكون هناك ضحك ساخر غليظ فى لندن بين أصدقاء هارى . ولقد يطلق هارى على رأسه النار . ويغدو الطفلان بلا أب وبلا أم ، وقد حرم عليهما التحدث عن أمهما التى هربت

مع قرصان فرنسى مثلها مثل خادمة صغيرة من العوام . .
وانطلقت أفكار كثيرة هائمة فى رأسها ، فيما هى تنظر
الى رجل « لامويت » الصامت ، ترى فى ذهنها ، السرير
المريح فى « نافرون » ، والحديقة التى يغمرها السلام
والأمان والبساطة فى الحياة مع الأطفال . ثم انها ،
فيما هى تتطلع بناظرها ، رأت ان الفرنسى واقفا
بجوارها ، وتساءلت عن مدى قدرته على قراءة ما يرتسم
بوجهها .

قال بهدوء :

– تعالى الى أسفل .

وتبعته ، شاعرة شعور تلميذة ذاهبة لتتلقى
عقابها . كان المكان مظلماً بالأسفل لا يضيئه الا شمعتان
تحترقان ، وجلس على حافة المنضدة ونظر اليها ، اد
هى واقفة فى مواجهته ، ويداه خلف ظهرها .

قال :

– لقد تذكرت انك دونا سانت كولب . . ؟!

فأجابت :

- أجل !

- وكنت تتمنين ، هناك فوق فى الظلام ، لو انك عدت لتكونى آمنة فى بيتك مرة أخرى ، كما تتمنين لو انك لم ترى « لامويت » أبدا .

فلم تحر جوابا على هذا . قد يكون الجزء الأول من جملته صادقا ، ولكن الجزء الأخير لا يمكن أن يكون كذلك أبدا . وساد الصمت بينهما لحظة ، وتساءلت اذا ما كانت كل النساء ، عندما يقعن فى الحب ، يشعرن بأنفسهن وقد تنازعهن اتجاهان مختلفان - بين الرغبة فى طرح كل تواضع جانبا والاعتراف بكل شئ ، وبين تصميم بالاحتفاظ بالحب خفيا الى الأبد ..

ونفض عن المنضدة ، وفتح صيوانا صغيرا ، وأخرج زجاجة وكوبين ، وبعض اللحم البارد وبعض الخبز .

قال :

— من عدم الحكمة دائما الخروج للمغامرة بقلب بارد ومعدة فارغة ، خاصة واذا لم يكن المرء معتادا على المغامرة .

فجلست وتناولت بعض اللحم وبعض الخبز ، واحتست قدحا من الخمر . وبدأت شكوكها ومخاوفها تختفى .

ودفعت كرسيها الى الخلف وتطلعت اليه . كان يبتسم لها ، وتضحك له ، ووجهها متورد ، مثل طفل قد اقترف شيئا يستحق عليه العقاب .

قال :

— ذلك أفضل ، اليس كذلك ؟

أجابت :

— أجل ، كيف عرفت ؟

قال :

— ان قبطان السفينة يجعل من أعماله أن يعرف هذه الأشياء . وصبي السفينة يحتاج الى أن يقدم الى حياة قرصان بطريقة أشد دماء من بقية رجالى . والآن انظرى الى هذه ...

والتقط قصاصة من ورق وفردها أمامها على المنضدة . رأت أنها خريطة « فوى هافن » .

قال وهو يضع اصبعه على الخريطة :

— ان المكان الرئيسى للسفن هناك ، فى الماء العميق ، فى مواجهة المدينة . وستكون سفينة « راشليه » راقده هنا ، عند مدخل الخليج الصغير . وكان هناك صليب باللون الأحمر على الخريطة بين المكان .. وواصل كلامه :

— اننى سأترك بعض الرجال على سطح « لامويت » ، ويمكنك البقاء معهم اذا أردت !

قالت :

— لا . منذ ربع ساعة مضت كان يمكن أن أوافق ،
ولكن ليس الآن ولا بعد الآن .

— هل أنت متأكدة بخصوص ذلك .

— لم أكن أبدا أشد تأكدا من أى شىء فى حياتى .

فنظر اليها فى ضوء الشمعة ، وشعرت بالمرح
فجأة ، وبالسعادة ، كما لو أن لا شىء يهم ، حتى لو
قبضوا عليهما وعلقوهما فى أطول شجرة فى حديقة
جودولفين .. فان هذا يكون جزاء وفاقا ، لأن هناك
قبل كل شىء هذه المغامرة التى هما على وشك انجازها
سويا .

قال :

— وهكذا فان السيدة سانت كولب قد عادت الى

سرير مرضها ..

قالت دونا :

— أجل ..

وحوّلت نظرها عنه ، وحطت نظرها على خريطة
« فووى هافن » .

قال :

– ستلاحظين أن هناك قلعة عند مدخل الميناء .
وهناك رجال على استعداد بالبنادق . وبالرغم من أن
الوقت ليل ، فانه ليس من الحكمة محاولة الذهاب الى
الميناء فى قارب . فيجب أن نذهب عن طريق الأرض .

ولزم الصمت وشرع يصفر بهدوء بينما ينظر الى
الخريطة وقال وهو يشير الى خليج على بعد ٠ ميل شرق
الميناء :

– هذا هو المكان الذى نحن فيه رابضون . وانى
أنوى أن أرسى السفينة هنا . وثمة طريق وعر الى
المرتفعات ، ثم نتحول الى هذا الطريق ونأتى الى الخليج –
وهو شبيه بالخليج القريب من نافرون ، وربما كان أقل
جمالا . . . وعند مدخل الخليج ، فى مواجهة « فووى »
سنجد سفينة راشليه . .

قالت :

– انك واثق من نفسك تماما .

– والا لما كنت قرصانا . أتستطيعين تسلق

المرتفعات ؟

قالت :

– لو أعرتني بعض ملابسك ، لا مكننى التسلق

خيرا منك .

فاخبرها قائلا :

– ذلك ما فكرت فيه . يوجد بعض الملابس التى

تخص « بيير بلان » هناك . ستكون أقرب الى حجمك .

ولن تحتاجي معطفا ، فالليل شديد الدفء .

قالت :

– هل سأقص شعري بالمقص ؟

فاجاب :

– ربما بدوت بذلك أقرب ما تكونين الى صبي

السفينة .. ولكن القبض على أهون من أن أجعلك
تفعلين هذا .

ثم سألها :

– كم ستستغرقين من الوقت فى استبدال
ملابسك .

قالت :

– خمس دقائق لا أكثر .
– سأتركك اذن . وعندما تنتهين تعالى الى
السطح .

ثم انصرف خارجا . مغلقا الباب خلفه .
وعندما لحقت به بعد عشر دقائق ، كان واقفا
عند السلم الذى وضعوه على جانب السفينة . كانت
المجموعة الاولى قد هبطت الى الأرض . وكان الباقيون
الآن فى القارب بالأسفل . فذهبت متجهة اليه ،
شاعرة بالضالة بل بالضيق فى ملابس « بيربلان » .
وضايقها الحذاء – وهو ما لا يجب أن تصرح به

للآخرين . وكانت قد عصبت شعرها بقطعة من
القماش . فنظر اليها الفرنسي وابتسم .

قال :

— ذلك حسن . ولكنك لن تخدعى أى انسان فى
ضوء القمر .

فضحكت له وقفزت هابطة الى القارب مع بقية
الرجال . وكان « بيربلان » نفسه قد تكوم فى نهاية
القارب أشبه بالقرد ، وعندما رآها ، أغمض عينيه ،
ووضع يده على قلبه . كان هناك صوت ضحك فى
القارب ، وابتسموا لها جميعا بمزيج من الاعجاب
والشعور بالود لا يؤذى الشاعر . وردت لهم الابتسامة
وجاء أخيرا قبطان « لامويت » وجلس بجانبها . وانحنى
الرجال على مجاذيفهم ، وانساب القارب مسرعا عبر
الخليج الصغير متجها صوب المرتفعات السماء .

وتطلعت دونا الى الممر . سيكون التسلق صعبا
فى هذا الحذاء الذى لا يناسب قدميها . ثم أبصرت
الفرنسى بجوارها وتناول يدها وتسلقا المرتفعات

سويا • وفكرت في نفسها بسعادة ، دونما احساس
بالمهانة ، فقد كانت هذه هي أول مرة يلمسها ، وكان
من الطيب أن تشعر بقوة يده •

وعند قمة المرتفع تفرق الرجال ، وتبعت دونا
الفرنسي فوق الأرض الوعرة ، صاعدة التل أولا ثم
هابطة ، حتى اخترقت أخيرا أشجارا كثيفة تنتهي الى
شريط ضيق من الرمال ، حتى وصلا الى جوار الخليج
الذي ينفتح على الميناء كاشفا عن مدينة صغيرة تقع
خلفه •

وجلسا تحت الأشجار وانتظرا ، وأتى الرجال
واحدا في أثر الآخر في سكون ، يدلفون صوبهما من
تلافيف الظلام • ونادى قبطان « لامويت » عليهم في
هدوء وعندما علم أنهم جميعا هناك ، شرع يتحدث إليهم
في لغة لم تستطع دونا أن تفهمها • وألقى بنظرة الى
الخليج وأشار ، ورأت دونا شكل السفينة الاسود •

وسرت نسمة من الريح صوب الخليج قادمة من
الميناء ، ورفع الفرنسي رأسه عاليا وتطلع جهة الغرب
صوب المدينة الصغيرة •

**فهمست دوناً وقد انتابها شعور بأن ثمة شيء
خطأ :**

— ماذا فى الأمر ؟

**فانتظر لحظة أو لحظتين قبل أن يجيب ، وهو
يستشعر الهواء بجانب وجهه ثم قال :**

**— لقد غيرت الريح اتجاهها • وأصبحت من الجنوب
الغربى •**

**ووجهت دوناً جانب وجهها فى اتجاه الريح ،
وتبينت هى أيضاً أن الريح التى كانت تهب من الأرض
خلال الأربع والعشرين ساعة الأخيرة ، كانت تأتى الآن
من البحر • وكان بها رائحة ملح مبتل • وفكرت فى
« لامويت » وفى الخليج الصغير ، وفكرت فى هذه
السفينة الأخرى الرابضة فى الخليج ، وعرفت الآن أن
المد كان صديقهم الوحيد • وأما الريح فقد غيرت اتجاهها
وأصبحت الآن عدوا •**

**ووقف الرجال جميعاً ، يتطلعون الى السماء ثم
عبر الخليج الى السفينة الساكنة • وخطا قبطان**

« لامويت » بضع خطوات ثم أشار الى « بويربلان » .
الذى اتجه اليه ووقف منصتا الى سيده . وعندئذ
اقترب الفرنسي من دونا ووقف بجانبها . . . وقال :

— لقد قلت « لبويربلان » أن يعود الى « لامويت » !

وشعرت بقلبها يخفق فجأة ، واجتاحها شعور
بارد . . وقالت :

— لماذا ؟ لماذا تريدنى ان اذهب ؟

وتطلع الى السماء مرة أخرى ، وفى هذه المرة
سقطت قطرة من المطر على وجهه فقال :

— الجو يوشك أن يكون لنا عدوا . ولا تستطيع
« لامويت » أن تظل بقرب الساحل اذ الرياح تهب من
البحر . وعلى الرجال الموجودين بها أن يستعدوا للابحار
بها فى امان الى عرض اليم . وأنت وبويربلان سيكون
لديكما متسع من الوقت للعودة وأعدادهم قبل أن
يستطيعوا الابحار .

قالت :

– انى أفهم ما تقوله عن الطقس • لقد أصبح من العسير عليك أن تبعد هذه السفينة • فلم يعد تساعدك الرياح ولا المد • وهذا هو السبب فى أنك تريد أن تعود بى الى « لامويت » ، أليس كذلك ؟ الا اذا كانت هناك مشكلة ؟

قال : .. أجل !

قالت : .. لن أذهب !!

فلم يحر جوابا ، ولم تستطع أن ترى التعبير المرتسم على وجهه لأنه كان يتطلع بنظره بعيدا فى اتجاه الميناء •

قال أخيرا وفى صوته شىء جعل قلبها يخفق بعنف مرة أخرى ، ولكن لسبب آخر :

– لماذا تريدین أن تبقى معنا • • ؟

قالت :

– أنت تعرف لماذا أريد أن أبقى •

وشعرت به يستدير وينظر اليها ، ثم يحول نظره
عنها ثانية ، ثم قال :

– وأريدك أن تذهبي لنفس السبب .

ومرة أخرى ساد بينهما السكون ، وكل منهما
يبحث عن كلمات ، ولو كانا منفردين لما كانا بحاجة الى
كلمات ، لأن ما كان يثير الشك فى النفس كان حاجزا
بينهما وقد تبدد فجأة ، فضحك وأمسك بيدها وقبل
أصابعها ، وهو يقول :

– امكثي ، وسوف تقاتل من أجله ، ونعلق سويا
على نفس الشجرة ، أنت وأنا .. !

– وتحول عنها وتحدث الى « بيربلان » ، الذى
أصبح وجهة ابتسامة عظيمة عندما تغيرت الأوامر .
ولكن الآن تزايدت بقع الأمطار ، وتجمعت السحب فى
السما ، وكانت ريح الجنوب الغربى تهب على الخليج
من الميناء .

**وناداهما مستخدما اسمها الأول مرة ، ولكن
باستخفاف وسهولة كما لو كان معتادا دائما عليه :**
– دونا .. !

فاجابت :

– أجل • ماذا تريدنى أن أفعل ؟

قال :

– ليس هناك وقت نضيقه • يجب أن نحرك السفينة قبل أن تصبح الريح أقوى • ولكن يجب أولا أن يكون صاحبها على متنها •

فنظرت اليه فى دهشة • وقالت :

– ماذا تعنى ؟

فاخبرها :

– عندما كانت الريح تهب من الأرض ، كان بمقدورنا الابحار بها خارج « فوى هافن » قبل أن ينفذ الكسالى النوم عن عيونهم • والآن يجب أن نبحر عكس التيار ، أو نشدها بالحبال خلال الفتحة الضيقة أسفل القلعة • سيكون من الأسلم الامساك بفيليب راشليه على سطح سفينته بدلا من الامساك به على الشاطئ • مسببا لنا المتاعب ومصدرا للأوامر للبنادق الموجودة بالقلعة لتطلق النار علينا عندما نمر •

كان يبتسم لها كما لو كان لا شيء يهم ، ولا يأبه
لشيء . **وسال :**

– أتحبين أن تفعل شيئا فيه شيء من الخطر ؟

قالت :

– نعم . أخبرني ماذا أفعل ؟

قال :

– أريدك أن تذهبي مع بيير بلان وتعثرى على
قارب . ستجدين بعض القوارب بأسفل الأكواخ عند
مدخل الخليج . وأريدك أنت وبيير بلان أن تأخذا أول
قارب تجدانه وتعبرا الى مدينة « فووى » وهناك أريدك
أن تزورى فيليب راشليه . ان بيته هو البيت الكبير
القائم بجوار الكنيسة ، مواجهها المرساة ستجدين الأمر
سهلا !

قالت :

– أجل .

– أريدك أن تخبريه أنه مطلوب بصفة عاجلة على

سطح سفينته • واختلقى أية قصة تشائين • ومثل أى دور ترغبين • ولكن ابقى فى الظل • فانت صبى سفينة فى الظلام ، ولكن امرأة فى النور •

– ولنرفض أنه رفض أن يأتى •

– انه لن يرفض اذا كنت ماهرة

– انه لن يرفض اذا كنت ماهرة •

– سأتولى أمره بنفسى عندئذ •

وسار الى حافة الماء ، وتبعه الرجال • وعرفت فجأة السبب فى ان ولا واحد منهم كان يضع معطفا أو قبعة ، والسبب فى انهم نزعوا أحذيتهم وربطوها حول رقابهم • ونظرت فى اتجاه السفينة والرجال نائمون على ظهرها • يجب أن لا يكون ثمة صوت للمجاديف فى الليل ولا ظلال للقوارب • • وانما يد مبتلة تمتد مرتفعة من الماء الى الحلقة ، وأثر قدم مبتلة على السطح وشخص أشكال مسرعة تتحرك فوق السفينة ، وهمس خفيف ، وصفارة ، وصرحة مكتومة سريعة •

لقد شعرت فجأة لغير ما سبب ، عدا انها امرأة .
وفيما هو يلتفت اليها خارجا من الماء ، ابتسم اليها
وقال :

— اذهبي الآن • اديري ظهرك لنا واذهي •

فأطاعته • ولم تلتفت ولو مرة واحدة الى الخليج ،
ولكنها كانت تعرف الآن انهم كانوا يسبحون جميعا الآن
في اتجاه السفينة ، وأن الريح تزداد قوة في كل
لحظة ، وأن المد يجري بسرعة • ورفعت رأسها ، ثم
أخذ المطر يتساقط ، قويا وسريعا ، من الجنوب
الغربي ١٠٠

الفصل العاشر

أخذا أول قارب بدون صعوبة ، وسحبه «بيربلان»
الى الميناء ، وهناك التقيا بالريـح العاتية وهى على
أشدها • وانحنى «دونا» الى الأمام ، وتوقف
«بيربلان» لحظة عن التجذيف •

قالت :

— سأجد البيت بمفردى ، ويجب أن تنتظرنى فى
القارب بجانب المرساة •

تتطلع اليها مرتابا ، ولكنها تكلمت بسرعة ملقية
يدها على ركبته • وقالت :

— انها الطريقة الوحيدة ، ثم اذا لم أرجع فى خلال
نصف ساعة فعليك أن تذهب فى الحال الى السفينة •

وبدا انه يفكر فى كلماتها ، ثم أشار علامة
الاتفاق ، ولكنه لم يبتسم — رغم أن بيير المسكين لم يكن
جادا من قبل ، وخمنت أنه هو أيضا قد شعر بأن المغامرة
بلا أمل •

ومرت على الشاطئ بأكواخ قليلة فى اتجاه
الكنيسة ووصلت الى البيت الكبير المواجه للمرساة •
كان هناك ضوء خلف الستائر يشع من نافذة بالطابق
الأسفل ، ولكن لم يكن بالشارع أحد • ووقفت تحت
النافذة ، لا تدري ماذا تفعل •

وفجأة سمعت النافذة تفتح فوق رأسها ، والصقت
نفسها بالحائط • وسأل شخص بداخل الحجرة سؤالا ،
فجاوبه صوت من النافذة التى تقع فوقه مباشرة جعلها

نصاب بصدمة عصبية عندما تعرفت عليه وعرفت صوت
من هو .

قال جودولفين :

— هناك زيج قوية تهب من الجنوب الغربى . ومن
المؤسف الآن أنك لم ترسل سفينتك الى مدى أبعد فى
أعلى النهر . فقد تسبب لهم متاعب فى الصباح اذا
استمر هذا الطقس .

كان هناك فترة صمت . واستطاعت دونا أن
تشعر بقلبها يخفق . لقد نسيت جودولفين وأن فيليب
راشليه كان مقترنا بأخته . . جودولفين الذى تناولت
فى بيته الشاى منذ اسبوع مضى . وها هو ذا على بعد
ثلاثة أقدام منها .

وتذكرت الرهان السخيف بخصوص الشعر
المستعار ، وتبينت أن الفرنسى لابد أنه قد عرف أن
جودولفين سيكون مع فيليب راشليه فى « فوى » تلك
الليلة وأنه قد خطط بحيث يظفر بشعر جودولفين
المستعار فى نفس الوقت الذى يستولى فيه على السفينة .

وبالرغم من خوفها وقلقها ابتسمت لنفسها . هذا
بالتأكيد جنون عظيم . . أن يخاطر رجل بحياته من
أجل رهان كله استهتار . . !

وتحدث الصوت الآخر بحدة من داخل الحجرة ،
وأغلقت النافذة فجأة . وابتعدت دونا عن الجدار
وذهبت الى الباب ، وبدون تردد شدت الجرس الكبير
المعلق بالخارج . وسمعت وقع خطوات أقدام وجذب
القضبان الى الخلف . ثم حدثت مفاجأة غير سارة :

فقد كان جودولفين نفسه واقفا هناك ، وثمة شمعة
في يده ، شاغلا مدخل الباب بحجمه الكبير .

قال بغضب :

— ماذا تريد ؟ . . ألا تعرف الوقت ؟ انه منتصف
الليل . وكل انسان في فراشه .

فتراجعت دونا بعيدا عن الضوء ، كما لو ان
كلماته قد أخافتها .

وقالت :

— السيد راشليه مطلوب • وقد ارسلوني اليه •
فالقبطان قلق على تحريك السفينة الآن ، قبل أن تزداد
العاصفة عتوا •

فنادى فيليب راشليه من داخل الحجرة :

— من هذا ؟

قال جودولفين :

— ادخل يا فتى •

— لا ، يا سيدى • اننى مبتل حتى جلدى • هلا
تفضلت وأخبرت السيد راشليه انهم أرسلوا اليه من
السفينة •

ولم تنه كلماتها حتى كانت قد ابتعدت لأنه كان
يتفرس فيها بشدة وكان حاجبها معقودين فى حيرة
وارتباك كما لو كان ثمة شئ فى شكل صبي السفينة
لم يستطع أن يفهمه • وجرت صوب المرساة فيما هى
تهيب بهم أن يسرعوا لأن الرياح تزداد حدتها •

وتوقفت قبل أن تصل الى المرساة ، متخذة ستارا
من مدخل أحد الأكواخ ، فقد كان هناك شخص يقف
بالقرب من حافة الماء ، يتطلع صوب الميناء فى اتجاه
مدخل الخليج . . كان ممسكا بمصباح فى يده .
وخمنت أنه قد يكون حارس المدينة الليلي . ولم تجرؤ
على المضى حتى انصرف لحال سبيله . وعلى أية حال
فان بيير بلان لابد أن يكون قد تحرك بالقارب عندما رأى
الحارس الليلي .

فأخفت نفسها فى مدخل الباب ، وهى تراقب
الرجل ، وتعض أظافرهما فى قلق ، ووقف هناك ينظر
عبر الميناء فى اتجاه الخليج ، كما لو كان هناك شيء
غير عادى أو حركة من نوع ما .

واجتاحها شعور بالمرض . ربما يكون ثمة خطأ قد
أصاب الخطة ، ربما كان رجال « لامويت » يقاتلون فى
الماء ، وقائدهم معهم ، أو ربما كانت المقاومة أقوى مما
توقعوا ، وكانوا يقاتلون الآن على سطح سفينة راشليه .
وفيما هى واقفة هناك بلا حول ولا قوة فى مدخل الباب .
سمعت وقع أصوات وخطوات ، وعند منحني الشارع .

فقد جاء راشليه نفسه وجودولفين ، وقد تلفعا بمعاطف
ثقيلة لمقاومة البرد ، وكان راشليه يحمل مصباحا فى
يده .

ونادى :

– انت يا من هناك .

فاستدار الحارس الليلي وهرع لملاقاته .

قل راشليه :

– هل رايت صبيا يجرى فى هذا الطريق . . ؟ !

ولكن الحارس الليلي هز رأسه . وقال :

– لم أر أحدا . ولكن ثمة شئ خطأ هناك ،

يا سيدى . يبدو كأن سفينتك قد اختفت . .

قال راشليه وهو يتحرك صوب المرساة وجودولفين

فى أثره :

– ماذا ؟ اذن لم يكن الصبى كاذبا على الاطلاق .

وضغطت دوننا ظهرها فى مدخل الباب . ومرا

بها ، دون أن ينظرا ولو مرة فى اتجاه الكوخ .
واستأنفا طريقهما فى اتجاه المرساة . فراقبتهما . ووقفا
وظهرهما اليها ، ناظرين عبر الميناء مثلما فعل الحارس
الليلي ، وانهمرت الأمطار فوق رأسيهما .

قال الحارس :

— انظر يا سيدي ، انهم ينشرون أشرعتها .
لا شك أن القبطان ينوى أن ينطلق بها فى عرض
اليم ..

فصاح راشليه :

— ان الرجل مجنون . فهناك أقل من اثني عشر
رجلا على ظهرها . أما الآخرون فنائسون جميعا
على الشاطئ . وستصطدم بالصخور ولا شك . اذهب
واستدع بعض الرجال يا جو .. يجب أن نضعهم جميعا
على ظهرها . اللعنة عليه من قبطان ابله غبي ! ماذا بحق
السماء يظن أنه يفعل .

ووضع يديه على فمه وصاح عبر الميناء :

- اهوى • مبرى فورشن • اهوى !!

وجرى الحارس الليلى الى جرس على المرساة .
وامسك بالحبل • وأخذ يدق الجرس عاليا بما يكفى
لايقاظ كل رجل وامرأة فى « فوى » • وبدأت الأنوار
فى نوافذ الأكواخ قرب الكنيسة ، وتصايحت الأصوات ،
ولاح الرجال وكأنهم يأتون من كل مكان ، يجرون الى
المرساة • وصاح واشليه :

- احضر لى قارباً ، ألا تستطيع • وليأخذنى
أحدكم الى سفينتى • خذونى الى سفينتى !!

وكان ثمة شخص يتحرك فى الكوخ الذى كانت
تختبئ فيه دونا • وسمعت وقع خطوات على السلم ،
وغادرت مدخل الباب واتجهت الى مكان المرساة • وفى
الظلمة والاضطراب ، وفى صفير الرياح والأمطار
الهائلة ، كانت مجرد شكل يختلط بالآخرين ، ينظر
الى السفينة .. السفينة التى ، وقد نشرت أشرعتها ،
كانت تتحرك الآن صوب الماء العميق فى اتجاه فتحة
الميناء •

صاح صوت من بين الأصوات :

— انظر ، انها بلا حول ولا طول • المد يحملها الى
الصخور • لابد أن الذين على ظهرها مجانين ، أو فى
غمرة السكر ، كلهم أجمعين !

كان بعض الرجال يناضلون الآن مع القوارب
المربوطة قرب المرساة • وأمكنها أن تسمعهم يسبون
وهم يحاولون أن يجذبوا القوارب •

بينما راشليه وجودولفين يراقبان الموقف من جانب
المرساة •

وصاح أحد الرجال :

— ان أحدهم قطع الحبل • • لقد قطعه أحدهم
بالسكين !

وفجأة ظهرت فى ذهن دونا صورة « بير بلان ،
الصغير ، وهو يضحك ما بينه وبين نفسه فى الظلام •
بينما كان الجرس الكبير يواصل ضوضاءه التى تصم
الآذان فوق المرساة •

وصاح راشليه :

- فليسببح أحدكم ويحضر لى قارباً . . بحق
السماء . . سأجلد الشخص الذى قام بهذه الخدعة .
بل سأشنقه !

والآن كانت السفينة تقترب ، وأمكن لدونا أن
ترى الرجال الواقفين بأعلاها ، ينشرون شراع القمة
العظيم ، وكان ثمة شخص عند عجلة القيادة يصدر
الأوامر ، وثمة شخص قد رجع برأسه الى الخلف ،
يرقب الشراع وقد ملأته الرياح .

صاح راشليه :

- أهوى ، هناك ، أهوى !!

واضاف جودولفين :

- غير اتجاهك يا رجل . غيره قبل أن يفوت
الأوان !

ورغم هذا واصلت « ميرى فورشن » طريقها .
فصاح أحدهم .

— انه مجنون • انه يدير الدفة في اتجاه فتحة
الميناء • انظروا هناك ، كلکم أجمعين ، انظروا هناك !
واستطاعت دونا الآن أن ترى ثلاثة قوارب ، وثمة
جبل يتدلى من السفينة لكل قارب •• ولا يزال شراع
القمة العظيم ملأنا ومشدودا ، والأشرعة الأخرى أيضا
ومالت السفينة والرياح تهب هابطة من التلال خلف
المدينة

صاح راشليه :

— انه ذاهب الى البحر • بحق السماء ، انه يأخذها
الى البحر ••

واستدار جودولفين فجأة ، ووقعت عيناه القبيحتان
المنتفختان على دونا التي كانت فى غمرة انفعالها قد
ازدادت اقترابا من حافة المرساة وصاح :

— هوذا ذلك الصبى • انه المعلوم على هذا •
فليقبض عليه أحدکم • اقبضوا على ذلك الصبى !!
واستدارت دونا وشرعت تجرى • بعماء ، بعيدا

عن الميناء ، وتخطت بيت راشليه والكنيسة ، ضاعده
صوب التلال ، بينما كانت تستطيع أن تسمع خلفها
رجلا يصيح ، وصوت أقدام تجرى ، وصوتا ينادى :

— ارجع ، هل سترجع ، ارجع أقول لك .. !

كان هناك ممر الى يسارها ، يتعرج على الأرض
الوعرة ، فجرت فيه . بصعوبة في حذائها الضيق
والطر ينهمر على وجهها ، وهناك بالأسفل كان بمقدورها
أن ترى مياه الميناء وتسمع صوت المد وهو يغسل أقدام
الصخور .

كان تفكيرها الوحيد هو أن تهرب ، أن تخفى
نفسها عن عيني جودولفين القبيحتين . لقد أضاعت
« بيريلان » الآن ، وكانت السفينة « ميرى فورشن »
تجاهد في معركتها هناك في الميناء .

لقد جرت في الرياح والظلام ، وكان الممر يؤدي
بها الى جانب التل حتى فتحة الميناء .

أخيرا بدأت تنحدر هابطة ، وتوقفت عن العدو

لحظة ، تمسح المطر عن وجهها • كان الممر يؤدي الى
خليج صغير قرب فتحة الميناء ثم يتعرج صاعدا التل •
وتطلعت الى الورا من خلف كتفها ورأت نورا آتيا
صوبها عبر الممر ، وسمعت وقع خطوات الأقدام •

فطرحت نفسها أرضا خلف بعض النباتات
الطويلة •• وازداد وقع الأقدام اقترابا ، وعبر بها رجل
يحمل مصباحا •

كان يسير بسرعة ، ناظرا أمامه مباشرة ، وعبر
بها واستمر ذاهبا الى الخليج الصغير ثم صعد ثانية في
اتجاه قمة التل • وعرفت عندئذ انه كان ذاهبا الى
القلعة • كان راشليه قد أرسله ليحذر الجنود هناك •
لعله قد اشتبه أخيرا أو لعله لا يزال يعتقد أن قبطان
« ميرى فورشن » قد فقد الصواب • لم يكن الأمر يهم
كثيرا • فالنتيجة واحدة • فالرجال الذين يحرسون
المدخل الى الميناء سيطلقون النار على « ميرى فورشن » •

وجرت الآن هابطة الممر الى الخليج الصغير •
ولكن بدلا من أن تتبع الرجل الذى يحمل المصباح فى

اتجاه قمة التل ، تحولت الى الشاطئ ، متسلقة على الصخور المبتلة الى فتحة الميناء نفسها وهنا أبصرت المدخل الضيق الذى رآته على الخريطة ، ومعه القلعة المقامة بأعلاه وذراع صخرة تبرز من الشاطئ . وليس فى ذهنها الا فكرة واحدة ألا وهى انها يجب أن تبلغ ذراع الصخرة قبل أن تصل السفينة الى فتحة الميناء ، ويجب عليها أن تجعل الفرنسى يعلم أن التحذير قد وصل الى القلعة .

وسقطت مرة بعد مرة على الصخور ، وكانت هناك جروح بيديها ووجهها . وتحلل شعرها من القماش الذى كان يحتويه . ولكنها استمرت تناضل .

وفى دقيقة أو اثنتين ستصل الى ذراع الصخرة .
وأمكنها أن تسمع الأمواج وهى تتكسر عند فتحة الميناء .
وعندئذ أبصرت « ميرى فورشن » .

كانت القوارب قد رفعت الى السطح ، لأنه على غير توقع وبطريقة عجيبة غيرت الريح اتجاهها قليلا ، واستطاعت السفينة عن طريق المد الذى ينساب تحتها

أن تقلع مباشرة في اتجاه فتحة الميناء . كانت هناك قوارب أخرى فوق المياه الآن . قوارب أصغر تحاول الإمساك بالسفينة ورجال يصيحون ورجال يشتمون ، ومن المؤكد أن جودولفين كان في واحد منها وراشليه بجواره . وضحكت دونا ، وهي تبعد شعرها عن عينيها ، لأنه لا شيء يهم الآن . لا غضب راشليه ولا واقعة أن جودولفين قد يتعرف عليها : قالسفينة « ميرى فورشن » كانت تبخر بعيدا عنهم ، في يسر ومروح ، في الرياح وفي عرض البحر . وانبعثت « صيحة طائر البحر » من مكان ما ، بالقرب منها تماما ، ورأت قاربا صغيرا يتحرك بسرعة عبر ذراع الصخرة صاعدة في اتجاه المرتفعات ، وأطلق مرة أخرى صيحة الطائر البحري .

وعندئذ وقفت دونا على الصخور . ولا زالت تضحك ، ورفعت ذراعيها فوق رأسها ، وأطلقت صيحة منادية عليه ، فأتى بقاربه إلى الصخور المجاورة لها . فنسلقت الصخور وسقطت في القارب ، دون أن

تسأل أية أسئلة . كما انه لم يقل شيئا ، وهو يجذف
بكل قواه خلال الأمواج المنكسرة فى اتجاه السفينة .

كان الدم يسيل من جرح بوجهها ، وكانت
ملايسها مبتلة حتى داخلها ، ولكنها لم تعبأ . كان
القارب الصغير قد ألقى به مهب الأمواج الغاضبة ، وهب
الماء الملح فى وجهها مع الريح والمطر . كان هناك وميض
من الضوء وصوت انطلاق بندقية ، وسقط شئ فى الماء
على بعد عشر خطوات أمامها ، ولكن « بيريلان » .
بوجهه الضحوك كوجه القرد ، جذف متجها الى عرض
اليم ، وهنا كانت « ميرى فورشن » نفسها ، تشق البحر
متجهة صوبهما ، والريح ترعد فى أشرعتها الملائة . . .

وانبعث وميض آخر . وهدير آخر يصم الآذان ،
وفى هذه المرة كان هناك صوت تكسر الخشب ، ولكن
دونا لم تستطع أن تفعل شيئا . لقد عرفت فقط أن
شخصا ما قد ألقى حبلا الى القارب ، وأن شخصا
يشدهما الى جانب السفينة ، وأن هناك وجوها تضحك
لها . وأيادى تلوح لها ، وأنه بعيدا بالأسفل منها كان

هناك اندفاع الماء الاسود وانقلب القارب الصغير مختفيا
فى الظلام .

وكان الفرنسى واقفا عند عجلة « ميرى فورشن » .
وكان هو أيضا مصابا بجرح فى وجهه ، والماء يسيل
من قميصه ، وشعره يتهدل على وجهه ، ولكن عيناه
التقت بعينيها لحظة وابتسم كل منهما للآخر ، وعندئذ
قال :

— استلقى على سطح السفينة يا دونا . فانهم
يطلقون النار ثانية !

فاستلقت بجواره على سطح السفينة ، وقد ذهبت
كل قواها ، مصدعة ، باردة ومبتلة ، ولكن لا شئ يهم .
ولم تأبه لشئ .

فى هذه المرة سقطت الرصاصة بالقرب منهما ،
فقدت « ميرى فورشن » السرعة فى حمى المرتفعات ،
وكان ثمة شخص فى القوارب خلفهما يطلق النار على
السفينة .

فناداها الفرنسي قائلا :

- انه صديقك يا دونا ، هل تعرفين ما اذا كان يحسن اطلاق النار ؟ . فتحركت متجهة الى الحاجز في مؤخرة السفينة وتطلعت شاخصة ببصرها كان هناك القارب الامامى ، يكاد يكون بأسفلهما ، يبدو منه وجه راشليه الغاضب ينظر اليهما ، وجودولفين يشهر بندقية مثبتة الى كتفه .

وصاح راشليه :

- هناك امرأة على ظهر السفينة . انظر هناك !

ولكن فيما هو يتكلم ، اطلق جودولفين النار ثانية ، ومرت الرصاصة من فوق رأسها دون أن تصيبها بأذى ، وعندما شعرت « ميرى فورشن » بالريح ثانية . رأت دونا أن الفرنسي يشير الى « بير بلان » بأن يتولى عجلة القيادة . وفيما هو يضحك ، مال على حاجز السفينة وهي تنغمر فى البحر ، ورأت دونا أنه يمسك بسيف .. وصاح :

— تحياتى لكما أيها السيدان • ورحلة آمنة الى
مرساة « فوى » • ولكننا نريد شيئا نتذكر كما به •

ومد سيفه ، وألقى بقبعة جودولفين فى الماء ،
وأمسك بطرف سيفه بالباروكة ذات الجداول العظيمة ،
ورفعها فى الهواء وهو يضحك عاليا •

أما جودولفين ، وقد أصبح رأسه مثل رأس
الوليد ، وعيناه منتفختين غضبا واستثارة ، فقد سقط
الى قاع القارب وسقطت بندقيته بجواره ا

وعندئذ هبت عاصفة من المطر ، واختفت القوارب
عن الأنظار • وانكسر البحر على حاجز السفينة ، ملقيا
دونا على سطحها • وعندما تمكنت من النهوض ثانية
والتقاط أنفاسها ، مبعدة شعرها عن وجهها ، كانت هناك
القلعة على قمة التل على مبعدة خلفها ، وكانت القوارب
بعيدة عن الأنظار • وكان الفرنسى واقفا ويده على عجلة
« ميرى فورشن » ، يضحك لها ، وباروكة جودولفين
تتلى من العجلة ...

الفصل الحادى عشر

كانت هناك سفينتان تمخران عباب البحر ، وكل منهما على بعد ثلاثة أميال من الأخرى ، وكانت السفينة الرائدة ذات مظهر مرح ، وتبدو بطلائها اللامع وأشرعتها النظيفة وكأنها تقود السفينة التجارية المتجهة التى تتبعها الى بحار مجهولة وراء الأفق البعيد .

وكانت عاصفة الصيف التى جللت البحر فاحالته أمواجاً عظيمة خلال أربع وعشرين ساعة بلا توقف قد انتهت الآن . والسماء مشمسة زرقاء لا تشوبها سحابة

واحدة . كانت الأمواج قد لفظت الحياة الآن - تاركة
البحر هادئا وساكنًا بدرجة تثير الفضول . وانبعشت
رائحة طهى الطعام من سطح « ميرى فورشن » الأسفل ..
الرائحة الدافئة لدجاجة تشوى . . وفتحت دونًا عينيها ،
وتبينت لأول مرة أن السفينة لم تعد تتدحرج . والدوار
الذى اجتاحتها قد انتهى ، كما أنها كانت جائعة ، أشد
جوعًا مما كانت فى أى وقت مضى .

لقد لاح كأن كل الوقت قد ولى منذ أن زحفت
وقد غمرتها التعاسة الى هنا فى الظلام ، مبتلة ، منهوكة
القوى ومريضة ، ونزعت عنها الملابس الخشنة والحذاء
القاسى وانزلت داخل دفة السرير المريح ، لا تريد
شيئًا سوى الهدوء والنوم .

وبلغت أنفها رائحة المطبخ ، وعندئذ ، فيما هى
تسمع صوت وقع الأقدام على سطح السفينة بالخارج ،
تطلعت فى اتجاه الباب .

نادى الفرنسى عليها :

- أأزلت متيقظة ؟



كانت هناك سفینتان !

فسأله أن يدخل ، فيما هي منحنية على الوسادة ،
وقلبها يخفق بلا سبب مفهوم ، ووقف هناك فى مدخل
الباب ، وهو يبتسم لها • وبين يديه صينية • • فقالت
له :

– لقلنا فقدت قرطى ! •

فشرع يضع المائدة ، وهي تراقبه • • وسأله :
– كم الوقت ؟

فأخبرها :

– حوالى الثالثة مساء •

– وأى يوم ؟

– يوم الأحد • سيتخلف صديقك جردولفين عن
زيارته الصباحية للكنيسة ، الا اذا كان هناك صانع
شعر مستعار ماهر فى « فوى » •

وتابعت عينييه وأبصرت الباروكة المجدولة معلقة
على مسمار فوق رأسها • وكانت لا تزال تضحك عندما
أحضر اليها طبقا به الدجاجة المشوية • •

وجلس الى المائدة ، وهو يقطع ساقا من الدجاجة ،
وشرع يلتهمها فقالت له :

— كان يمكن ان تكون معلقين على تلك الشجرة فى
حديقة جودولفين .

فاجاب :

— كان يمكن ان تكون كذلك لو لم تغير الريح
اتجاهها ..

— وماذا سنفعل الآن ؟

فاخيرها قائلا :

— انا لا اضع خططا ابدا يوم الأحد .

فاستمرت فى التهام قطعة من الدجاجة ، وانبعث
من جناح الرجال بالسفينة صوت آلة « بييربلان » ،
الموسيقية ، وأصوات الرجال وهم يغنون فى مرح ..
وسالته :

— أبحالفك الحظ دائما أيها الفرنسى ؟

فاجاب ، وقد شرع يلتهم الساق الأخرى :

— دائما ١١

وانتشرت الشمس على المائدة — بينما كان البحر
الكسول يهمس في مواجهة الجانب الآخر من السفينة ،
واستمر في تناول الطعام • كان كل منهما واعيا بوجود
الآخر ، وبالساعات التي تمتد أمامهما •

وقال الفرنسي بعد فترة صمت وهو ينظر حوله :

— راشليه يريح بحارته • وربما كان هذا هو
السبب في انهم كانوا نائمين جميعا عندما تسلقنا ظهر
السفينة ..

— كم كان منهم هناك ، حينذاك ؟

— خمسة فقط أو ستة •

— وماذا فعلتم بهم ١٩

— لقد قيدناهم ظهرا لظهر ووضعناهم في قارب
بدون أية مجاذيف • وأتوقع أن يكون راشليه نفسه
قد وجدهم ١٠٠

- هل سيثور البحر ثانية ؟

- لا . لقد انتهى ذلك كله ..

وانحنى راجعة الى الوراء فى أريكتها ، تراقب الشكل الذى كونته الشمس بجوارها .. وقالت :

- اننى مسرورة لأننى حصلت على ما أريد أعنى
الخطر والاثارة ، ولكنى مسرورة لأن كل شئ انتهى
كذلك . ولست أريد أن أفعل هذا ثانية .. لا ذلك
الانتظار خارج بيت راشليه ، ولا الاختفاء قرب المرساة ،
والجرى عبر التلال حتى ظننت أن قلبى سينشق !

قال :

-لقد أحسنت تادية دور صبي السفينة .. !

وتطلع ناظرا اليها ثم حول نظره عنها . فقالت :

- كم سنبقى فى « ميرى فورشن » ؟

سال :

- لماذا تريدان العودة الى البيت ؟!

ونفض عن المائدة وذهب لينظر الى « لامويت »
حيث وقفت بلا حراك تقريبا ، على بعد ميلين او ثلاثة .
وقال :

— تلك طريقة الحياة في البحر ، داما اما رياح
شديدة جدا او ضعيفة للغاية . لو كانت هناك أية رياح
لكننا الآن عند الساحل الفرنسى . ولكننا قد وصلنا اليه
الليلة .

ووقف هناك ويداه في جيبيه وشفتاه تترنمان
بكلمات الأغنية التى كان يعزفها « بيربلان » ..

سالت :

— ماذا ستفعل عندما تاتى الرياح كما تهوى ؟
— سنبحر قرب ساحل « بريتانى » ، ثم نترك
رجالا قلائل ليأخذوا « ميرى فورشن » الى الميناء . اما
نحن فسنعود الى سطح « لامويت » .

قالت :

— ثم الى أين فذهب ؟

– نعود الى « هلفورد » طبعاً • الا تريدان ان ترى طفليكم •

لم تحر جواباً • كانت تراقب مؤخر رأسه ، وخط كتفيه •

واستدار واتجه نحوها • قائلاً :

– هذه أفضل لحظة بالنسبة لقرصان • لقد انتهى التخطيط • وانتهت اللعبة بنجاح • ويجب على المرء اذا ما نظر الى الخلف ان يتذكر اللحظات الطيبة اما السيئة فتطرح جانباً الى وقت آخر •• وعلى هذا ، فانه لما كانت الريح لن تهب قبل الليلة •• فاننا نستطيع ان نفعل ما يحلو لنا !

وأصفت دوناً الى عمسات البحر ازاء جانب السفينة •

وقالت :

– ربما أمكننا العوم ، في طراوة المساء قبل غروب الشمس •• !

قال :

– يمكننا ••• !

الفصل الثانى عشر

وقفت دونا عند عجلة القيادة للسفينة «لامويت» ،
وانحسرت السفينة خلال البحار الحضراء . ملقية الماء الى
أعلى وإلى جانبيها . وانتشرت الأشرعة البيضاء وغنت
فوق رأسها ، وانصبت كل الأصوات التى تعلمت أن
تحبها فى أذنيها فى جمال وقوة . . انه غسيل البحر ،
وصوت الرياح فى الحبال ، وأصوات الرجال وهم
يتضاحكون ويتبادلون النكات ، ويتطلعون الى أعلى من
حين الى آخر ليروا ما اذا كانت قد لحظتهم ، كالأطفال

يسعدهم أن يلقوا استحسانا • وسطعت الشمس
الدافئة على رأسها العارية • بل إن سطح السفينة نفسه
كان يفوح برائحة قوية ، دافئة • رائحة الخشب
الدافئ ، والحبال والماء الأزرق المالح !

وفكرت في أن كل هذا ، لا يدوم الا لحظة •
مجرد لحظة من الزمان لن تأتي مرة أخرى • لأن
الأمس ينتمى الى الماضي ولم يعد ملكا لنا ، والغد شيء
غير معروف قد يكون عدوا • هذا هو يومنا ، وهذه
هي لحظتنا • الشمس تنتمي اليها ، والرياح ، والبحر •
والرجال الذين يغنون هناك فوق سطح السفينة •
هذا اليوم هو يوم الى الأبد ينبغي الامساك به واكتنازه ،
لأننا فيه سنكون قد عشنا ، وأحببنا ، وهو الشيء
الوحيد الذي يستحق الاهتمام في العالم الذي صنعناه
لأنفسنا ، والذي اليه قد هربنا • !

والقت اليه نظرة ، فيما هو راقد على السطح
بجوار حاجز السفينة ، ويداه خلف رأسه ، وغليونه
في فمه • ويبتسم راضيا عن نفسه من حين لآخر •

وفتح عينيه وتطلع اليها ، ثم نهض وتمطى وأقبل
نحوها ووقف بجوارها ، ووقف كل منهما هناك ،
يراقبان السماء والبحر والأشعة ، ولا ينبسان بحرف .

كان ساحل « كورنول » شريطا ضيقا يمتد على
الأفق البعيد ، جاءت أولى الطيور لتحيتهم ، تحوم في
دوائر وتصيح بصوت عال فوق السفينة ، وعرفا ذلك
قبل أن تصلهما رائحة الأرض من التلال البعيدة ، وتفقد
الأرض قوتها ، وتنفتح رقعة هلفورد المتسعة ، بينما
الشمس الغاربة تشع احمرارا وذهبا على الماء ..

وتحركت « لامويت » داخلة في اتجاه الأرض ،
مثلما فعلت في أول أمسية . تلك التي تبدو الآن وكان
قد انقضى عليها وقت طويل عندما كانت دونا تستلقي
على المرتفعات وتراقبها . وغربت الشمس ، وبرزت طيور
البحر لتحيتهما والمد المرتفع والماء البسيط سري
بالسفينة في حنان وفي سكون الى مصب النهر . وفيما
هما يبلغان الخليج ، سكنت الريح . وأدليت القوارب ،
وألقيت الحبال ، ودرست السفينة في مكان راحتها
الحفى وقد بدأ الليل يلقي أستاره .

كانت دوناً منحنية على الحاجز ، تراقب النجم
الأول فوق شجرة يلفها الظلام ، عندما جاء الفرنسي
اليها . كان قاربه ينتظر تحت السلم ، وجذفا بعيدا
داخل الخليج .

وسرعان ما كانت النار تشتعل فى نفس المكان
كما حدث من قبل ، وفى هذه الليلة طبخا لحما . .
وتناولوا اللحم بأيديهما ، ثم أعدا القهوة ، مركزة ومرة .
فى وعاء معوج اليد ، وبعد ذلك أشعل غليونه ، وأنحنت
دوناً على ركبتة ، ويدها خلف رأسها .

قالت وهى تراقب النار :

— لو أردنا لأمكن أن يدوم هذا الى الأبد . يمكن
أن يستمر حتى الغد واليوم الذى يليه ، ولسنة منذ
الآن . ليس هنا فحسب ، بل فى كافة البلاد الأخرى ،
فوق أنهار أخرى ، وفى أراضى يمكننا أن نختارها
بأنفسنا .

قال :

— أجل ، لو أردنا . ولكن دوناً سمانت كولب

ليست دوننا صبي السفينة • انها شخص يعيش حياة
في عالم آخر ، وحتى في هذه اللحظة هي تحيا متيقظة
في حجرة نوم في « نافرون » ، وقد زالت عنها الحمى ،
تذكر فحسب الحلم الذي حلمته • وهي تنهض •
وترتدى ملابسها ، وتعنى بشتونها المنزلية وأطفالها •

قالت :

— لا • انها لم تستيقظ بعد ، ولا زالت الحمى
ملازمة لها ، ولا زالت أحلامها أجمل من أى حلم حلمته
في حياتها •• !

قال :

— قد يكون هذا حقا •• ولكنها لا زالت أحلامها •
وستستيقظ في الصباح •• !

قالت :

— لا • لا • سيدوم هذا دائما • دائما النار ،
والليل المظلم ، والعشاء الذى طهوناه سويا • ويدك
هنا بجوار قلبي !

وتطلعت اليه ، ولكنها لم تستطع أن ترى وجهه
الآن ، لأن النار كانت تلملم السنتها وتتلاشى .

وأعلمته قائلة :

- غدا ، في الصباح المبكر ، سآذهب الى
« نافرون » ، عند شروق الشمس ، قبل أن تستيقظ .

قال :

- أجل .. !

- سأنادى على وليم قبل أن يستيقظ أى انسان ،
فاذا كانت الأمور على ما يرام بالنسبة للأطفال ،
ولا حاجة بهم الى أن أبقى معهم ، ساعود الى الخليج .
- ثم بعد !

- حسنا ، لا أعرف . هذا يتوقف عليك . فليس
التخطيط من الحكمة . فغالبا ما ينكشف التخطيط عن
خيبة أمل .

قال :

- سنتظاهر بأننا نخطط . سنتظاهر بأنك آتيت

للافتار معى ، وبعد ذلك تأخذ القارب وتترل هابطين
فى النهر . وستصطادين السمك ثانية ، ولكنك
ستكونين هذه المرة أكثر نجاحا مما كنت فى المرة
السابقة .

– أسنصطاد سمكا كثيرا ؟
– لن نقرر ذلك الليلة . سنترك ذلك حتى تأتى
اللحظة المناسبة .

واستأنفت حديثها :

– وعندما نكون قد انتهينا من الصيد – سنقوم –
فى الظهيرة عندما تكون الشمس على أشدها فوق الماء .
وبعد ذلك سنتناول طعامنا ، ثم ننام على ظهورنا فوق
رقعة من الرمال . وسيحط طائر بحرى لتطعمه عندما
يتحول المد ، بحيث يمكنك أن ترسبه .

قال :

– لا . لن أرسم الطائر البحرى . وإنما سأرسم
صبي السفينة « لامويت » ..

قالت :

ـ وهكذا سيكون هناك يوم آخر ، وآخر ..
لا ماضى ولا مستقبل .. وانما الحاضر فقط !

وفكرت قبل أن تنام أنه فى مكان ما هناك دونا
أخرى ، مستلقية فى ذلك السرير الكبير المسدّن الستائر
فى لندن ، على ضيق وقلق ووحيدة لا تعرف شيئا عن
هذه الليلة بجوار الخليج أو عن « لامويت » التى ترسو
هناك آمنة فى الظلام .

وعندما استيقظت كان هناك ضوء رمادى على
الأشجار . وكان رماد النار أبيض اللون ، أشبه
بالتراب . وتطلعت إليه ، وهو نائم ، وتعجبت من أن
الرجال يبدون كالأطفال عندما ينامون .. فكل الخطوط
قد تراخت وكل المعلومات ، أيضا .. لقد عادوا
واستردوا ثانية نعيم الأطفال الذى فقدوه .

وسارت بعيدا صوب الأشجار والطريق الضيق
الملتوى الذى سيؤدى بها الى « نافرون » ...

كانت نافذة « وليم » مفتوحة . فانحنيت وتناولت حجرا صغيرا وألقت به على النافذة . فظهر وجهه في لحظة . ونظر اليها كما لو كان خائفا . ثم وضع أصبعه على شفتيه واختفى . وانتظرت بقلق في قلبها لأن وجهه كان أبيض وتبدو عليه دلائل الخوف . جيمس مريض ، جيمس قد مات . انه يوشك ان يقول لي ان جيمس قد مات . ثم سمعته يجذب القضبان بخفة . وانفتح الباب الكبير ليفسح لها طريقا ضيقا تمر منه .

قالت وهي تلمس ذراعه :

— كيف حال الطفلين ، هل هما مريضان ؟

فهز رأسه نفيا ، وهو لا يزال يشير اليها بأن تلزم الصمت ، ويتطلع من فوق كتفه الى سلم القاعة .

ودخلت البيت ، وهي تتلفت حولهما . وفجأة أدركت ، وخفق قلبها خفقانا شديدا . كان هناك معطف كبير على الكرسي ، وسوط من سياط الجياد ، وعلامات أخرى تدل على وصوله . وكانت هناك قبعة ملقاة على الأرضية الحجرية ، وسوط آخر .

قال وليم :

.. لقد أتى السير هـ هارى ، يا سيدتى . قبل مغيب
الشمس ، قادما من لندن . ومعه اللورد هـ روكنجهام ، ! .
فلم تقل شيئا . واستمرت تتطلع الى المعطف
الكبير المستقر على الكرسي ...

الفصل الثالث عشر

ذهبت دونا بهدوء شديد الى حجرة صغيرة
مجاورة للقاعة • وأشعل وليم شمعتين هناك ثم وقف
منتظرا اياها أن تتكلم •

قالت :

— ما هو السبب الذي أبداه • ولماذا قدما ؟ •

قال وليم :

— يبدو أن السيد هارى لم تكن تروقه لندن

بدونك ، ياسيدتى • وأن كلمة من لورد « روكنجهام » جعلته يبت فى الأمر • وأظن ان اللورد روكنجهام قابل أحد أقرباء اللورد جودولفين فى البلاط ، وأن هذا الشخص أخبره أن وجود السير هارى فى هذه الناحية ضرورى للغاية • هذا كل ما استطعت أن أعلمه من حديثهما على العشاء ، ياسيدتى •

قالت دونا كما لو كانت لم تسمعه :

— أجل ، لابد أنه روكنجهام فان هارى من الكسل حتى يأتى بدون أن يغريه أحد •

ووقف وليم بلا حراك ، والشمعة فى يده •

وسأله :

— ماذا أخبرت السير هارى ؟ كيف أبقيته بعيدا عن حجرتى ؟

ولأول مرة ظهرت ابتسامة باهتة على وجهه

« وليم » •

- لقد أوضحت للسيدتين حالما وصلا ، انك قد لزمت الفراش أياما عديدة مصابة بحمى شديدة . وقلت انك تمكنت أخيرا من الحصول على قسط من النوم . وانه سيكون من الخطير جدا بالنسبة لصحتك أن يذهب السير هارى الى حجرتك . فالهدوء التام كان ضروريا .

- وماذا قال اللورد روكنجهام ؟

- لقد بدا وكأنه قد أصيب بخيبة أمل اذ لم تهبطى لاستقباله ، ولكنه قال شيئا قليلا . وبدا مهتما عندما أخبرت « برو » السير هارى انه ما من أحد يعنى بك الا أنا نفسى ، ولحظت أن سيادته نظر الى نظرة فاحصة ياسيدتى .

- هذا يتأتى منه . فان له مثل هذه العقلية ، فله أنف طويل مثل أنف كلب يصيد الفئران . . ان الطريقة التى يتدخل بها القدر عندما نضع خططا لغريبة حقا . لقد خططت لأن أتناول الافطار مع سيدك فى الخليج وان اصطاد السمك معه ، وان أعوم،

وان تطهو طعام عشائنا تحت النجوم ، مثلما فعلنا فى
الليلة الماضية • ولقد انتهى كل ذلك الآن •

– ولكنه لم ينته لوقت طويل ياسيدتى •

– لانعرف • يجب أن نخبر لامويت بكل
ما يحدث ، ويجب أن تغادر السفينة الخليج مع المد
القادم •

– قد يكون من الأصوب الانتظار حتى مجئ
الليل ، ياسيدتى •

– سيقدر سيدك بالطبع يا « وليم » ••

– ماذا يا سيدتى ؟

ولكنها هزت رأسها ، وأخبرته عيناها بالأمور
التي لا يمكن أن تقولها فى كلمات ، وانحنى فجأة ،
واضعا يده على كتفها لحظة كما لو كانت « هنرييتا » ،
والتوى فمه المضحك الشبيه بالزرار • وقال :

– انى أعرف ياسيدتى • ولكن الأمور
ستتحسن • ستكونان سويا مرة أخرى •

لأن عودتها الى المنزل كانت شيئا لم تتوقعه ،
ولأنها كانت متعبة ، ولأنه لمس كتفها بطريقته الحانية
المضحكة ، أحست بالدموع تجرى على خديها ، ولم
تتمكن من إيقافها . قالت :

– سامحنى يا وليم .

– سيدتى .

– شيء غبى للغاية . غبى للغاية ، وضعف .
ان هذا شيء يفعله المرء عندما يكون فى غاية السعادة .

– أعرف ياسيدتى .

– لأننا كنا سعداء يا وليم . وكانت هناك
الشمس ، والرياح والبحر ، والجمال الذى لم يظهر
بمثل هذه الصورة من قبل !

– يمكننى أن أتصور ذلك يا سيدتى .

– ان هذا لا يحدث كثيرا . اليس كذلك ؟

– مرة كل مليون سنة يا سيدتى .

- وعلى هذا ساتوقف عن الصراخ مثل طفلة مدللة • لأنه مهما حدث • فاننا قد نلنا كل ما نتمنى وما من أحد يستطيع أن يسلبنا اياه لقد عرفت طعم الحياة •• أنا التى لم تكن تدرى لها طعما ولا معنى من قبل •• والآن يا وليم ، فانى سأذهب الى حجرتى وأخلع ملابسى وأدخل فى سريرى • وغدا فى الصباح ستنادينى ، ومعك افطارى ، وعندما أقدر على تحمل الأمر ، سأرى سير هارى ، وأتبين مدى الوقت الذى ينوى أن يمكثه •

- حسنا ، ياسيدتى •

- وعلى أية حال ، بطريقة ما ، يجب ارسال كلمة الى سيدك فى الخليج •

- أجل ، ياسيدتى •

وهكذا ، وضوء الشمس يخترق الستائر ، غادرا الحجرة ، أما دونا ، فقد صعدت درجات السلم وحذاؤها فى يدها ، تلك الدرجات التى هبطتها منذ

خمسة ايام ، وبدا لها كان عاما من الزمان وحياة
باسرها قد انقضت منذ ذلك الحين .

كان الوقت قد جاوز التاسعة عندما دخل وليم
حاملا الافطار ووضع الصينية على المنضدة المجاورة
للسرير . وسالها :

– هل ارتحت ياسيدتى ؟

قالت :

– أجل ، يا وليم ..

قال :

– ان السيدين يتناولان افطارهما ، يا سيدتى ،
وقد طلب منى السير هارى أن أسألك عما اذا كنت
أحسن حالا . وعما اذا كانت صحتك تمكنك من
مقابلته .

– أجل ، سيتعين على أن أراه يا « وليم » ..

– لعن من الواجب على أن أقترح ياسيدتى ،

انه من الاصوب ابقاء الستائر مسدلة ، بحيث يظل وجهك فى الظل . فقد يظن السير هارى انه من الغريب أن تبدين فى خير عافية .

– هل أبدو كذلك يا وليم ؟ .

– بدرجة تثير الريبة ياسيدتى ..

وأحكم ترتيب الستائر وانصرف بهدوء . ولم يمض وقت طويل حتى سمعت وقع خطوات أقدام ، وفى لحظات كان هارى فى الحجرة .

وفىما هو يجلس متاثقلا على السرير ، مسح وجهه بمنديل المغطر ، وهو يتنفس بصعوبة أثناء ذلك .

قال :

– بحق السماء ، ان الجو دافئ هذا الصباح . فهانذا أتصيب عرقا خلال قميصى ولم تجاوز الساعة العاشرة . اذن ، فقد كنت مريضة ، اليس كذلك ؟ لم يكن من الواجب عليك أن تتركى لندن .. لندن

تلائمك دائما . رغم انى اعترف لك انها كانت دائما
ثقيلة الظل بدونك . ما من مسرحية تستحق المشاهدة ،
كما اننى فقدت ثروة فى لعب الورق منذ ليال قليلة
.. ويشاع أن الملك لديه محظية جديدة ، رغم انى
لم أرها .. انها ممثلة أو شىء من هذا القبيل ..
روكنجهام موجود هنا ، كما تعرفين ، وهو يتحرق
شوقا لرؤيتك . لقد قال لى فى لندن ، دعنا نذهب
الى « نافرون » ونتبين ماذا تفعل دونا ، وها نحن ذا ،
وها أنت مريضة راقدة فى الفراش ، يا للعة .. !!

- اننى أحسن كثيرا يا هارى .. كان شيئا
عارضاً .

- حسنا ، اننى مسرور لأن أسمع ذلك ،
ويجب أن أقول انك تبدين فى خير صحة . وبشرتك
قد حرقته الشمس . أليس كذلك ؟

- يجب أن يكون المرض قد أحال لونى شاحبا .

- وعيناك أكبر مما كانتا ..

- بسبب الحمى يا هارى ..

انها نوع غريب من الحمى . لاشك انه امر
له علاقة بالهواء هنا . لقد اشتريت جوادا جديدا ،
كما تعرفين ، سترينه . الحى ملىء بالقراصنة
والسرقة ، وأعمال العنف .

— أين سمعت ذلك ؟

— حسنا ، روكنجهام قابل أحد أولاد عم جورج
جودولفين فى البلاط يوما ما . كيف حال جودولفين؟ .

— كان يبدو معتل المزاج عندما قابلته فى المرة
الآخيرة .

— لست مندهشا ، لقد ارسل الى خطابا منذ
فترة . نسيت الرد عليه . والآن يبدو أن روج اخته
قد فقد سفينة . أتعرفين فيليب راشليه ؟

— لم أتحدث اليه أبدا .

— حسنا ، ستقابليه حالا . لقد دعوته أن يأتى
الى هنا . قابلناه فى هلسن . . وكان فى حالة

مزاجية سيئة . وكذلك كان أويستيك ، الذى كان
بصحبه . ويبدو أن هذا الفرنسى الشيطانى أبحر
بالسفينة خارج ميناء فوى ، بالرغم من أن راشليه
وجودولفين كانا هناك .

— لماذا دعوت فيليب راشليه أن يأتى الى
هنا . . ؟

— حسنا ، لقد كانت فى الحقيقة فكرة
« روكنجهام » . قال لى : « دعنا ندخل فى اللعبة ،
سنعقد اجتماعا وننصب مصيدة للفرنسى !

— أظن أنك ستنجح يا هارى بالرغم من أن
الآخرين قد فشلوا ؟

— أوه ، سيفكر « روكنجهام » فى شيء ما .
انه الشخص الذى يصلح لهذا النوع من العمل . اننى
أعرف ، أننى لا نفع لى ، فليست لدى أية أفكار ، بحق
السماء أقول ، يادونا ، متى تنوين مغادرة القراش ؟

— عندما تكون قد غادرت الحجرة .

— حسنا اذن ، سأذهب وأخبر روكنجهام انك
تغادرين الفراش . وسيسر لذلك وسارسل الأطفال
اليك . أليس كذلك ؟

وسار خارجا من الحجرة ، وهو يغنى بصوت
مرتفع .

هكذا كان فيليب راشليه فى هلستن بالامس ،
وأويستك معه . وجودولفين أيضا يجب أن يكون قد
عاد . وتذكرت وجه راشليه فى آخر مرة رآته فيها ،
ووجهه الأحمر المتألق بالغضب وانعدام الحيلة
وصيحته : « هناك امرأة على ظهر السفينة .. انظر
هناك ! » فيما هو يتطلع اليها من القارب فى ميناء
« فووى » ، وتذكرت نفسها وقد تهدل شعرها ، بينما
تضحك له وتلوح بيدها .

من المستحيل أن يكون قد تعرف عليها . فقد
كانت فى ملابس الرجال ، وكان وجهها يقطر بالمطر .
ونهضت من فراشها ، وشرعت ترتدى ملابسها ،
وذهنها لايزال مشغولا بالأنباء التى نقلها هارى اليها .

ان « روكنهجام » هنا فى « نافرون » ، وهو متشوق
لأن ينضم الى الصيد وهو يشكل خطرا .. لأن من
أوكد أن روكنجهام ليس غبيا .

كان هناك من يقرع الباب ، ودخل الطفلان .
كانا يحملان لعبا جديدة أحضرها هارى معه من لندن،
وكان جيمس يضع لعبته فى فمه . وهى عبارة عن
أرنب .

والقيا بنفسيهما عليها ولا مساهما بأيديهما
الدافئة الرقيقة وقبلاتهما الكريمة . بينما كانت
« برو » ، بقرب الباب ، تسأل بقلق عن صحتها .
وفكرت دونا ، وهى تضمهما اليها ، أنه فى مكان
ما هناك امرأة لا تأبه لشيء من هذه الأشياء ، ولكن
تستلقى على سطح سفينة وتضحك مع عشيقها ، وطعم
الملح على شفاههما ، ودفع الشمس والبحر .

قالت هنرييتا :

— لعبتى أفضل من لعبة جيسس ..

ما حيمس ، العجاس يلى ركة دونا دون أن يهدأ
دقيقة ، ووجهه الدافئ يلتصق بها ، فقد صاح :
... لا ، بل لعبتى . لعبتى . . !

وأخرج أرنبه من فمه وألقاه بقدر ما استطاع
من شدة الى أخته . فانهمرت دموع ، وتعنيفات ،
واستحالا صديقين مره أخرى ، وتناولا مزيدا من
القبلات ، والحلوى . . واختفت السفينة ، واختفى
البحر ، ولكن سانت كولب نافرون ، بشعرها
المصفف وثوبها الأزرق هبطت درجات السلم الى
الحديقة ، ممسكة بيد طفل فى كل من يديها .

**قال دوكنجهام فيما هو يتقدم صوبها ويقبل
اليه المملودة اليه :**

— اذن فقد أصبت بالحمى !

وفىما هو يتراجع لينظر اليها ، اضاف قائلا :

— على أية حال ، لقد كانت حمى ذات نتائج
مفرية للغاية .

قال هارى :

— ذلك هو ما قلته . أخبرتها بذلك عندما كنا
بالطابق الأعلى ، لقد لوححت الشمس بشرتها حتى
غدت أشبه بفتاة من الريف .

وانحنى الى الامام وامسك بالطفلين ولاعبهما ..
فهللا من الفرح .

وجلست دونا على مقعد بالحديقة ، بينما كان
روكنجهام ، وهو جالس أمامها ، يعبث بالحرير
الرقيق الذى يزين كميته . وقال :

— لا يبدو انك مسرورة برؤيتى .

فأجابت :

— ولم يجب على ؟

فتطلع اليها من جانبى عينيه ، واتى بحركة من
كتفه . وسأل :

– ماذا كنت تفعلين هنا وطوال الوقت ؟

وراقبت دونا هارى والطفلين وهم يلعبون على
الأعشاب . وقالت :

– لقد كنت سعيدة للغاية . وحيدة هنا مع
الأطفال . لقد أخبرت هارى عندما تركت لندن ، اننى
أردت أن أختلى بنفسى . وانى لغاضبة عليكما
لتعكيركما سلامى .

قال روكنجهام :

– اننا لم نأت للمتعة فحسب . وانما نحن هنا
للعمل كذلك . اننا ننوى أن نقبض على القرصان الذى
يبدو أنه يسبب لكم جميعا الكثير من المتاعب .
– وكيف تزمعان أن تفعلنا ذلك .

– حسنا . سنرى . فان هارى متحمس للفكرة .
لقد كان يجد الحياة ثقيلة الظل بدون شىء بفعله .
كما أن لندن فى منتصف الصيف تفوح برائحة سيئة
للعافية ، حتى بالنسبة لى . وسيفيد الريف كلا منا .



يبدو أنك غير مسرورة لرؤيتي . . .

- كم من الوقت تزمعان البقاء هنا .. ١٩

- حتى نقبض على الفرنسي .

فضحكت دوننا ، والتقطت زهرة ، وأخذت تلعب بها . وقالت :

- لقد رجع الى فرنسا .

قال روكنجهام :

- لا أظن ذلك .. لأن « اويستيك » أخبرنا بالأمس أن أحد قوارب الصيد أبلغ بالأمس أنه رأى سفينة تبخر في اتجاه الساحل الانجليزي .

- هذا لا يعنى الكثير . وربما كانت سفينة تجارية تعود .

- الصياد لا يظن ذلك .

- الساحل الانجليزي يمتد طويلا يا عزيزي روكنجهام .

- أجل ، ولكن الفرنسي يأتي فقط الى هذا الجزء
من البلد . وراشليه يعتقد انه قد أتى حتى نهر
هلفورد هنا .

- يجب أن يكون قد فعل ذلك أثناء الليل
وانا في الفراش مستغرقة في النوم .

- من المحتمل أن يفعل ذلك . ولن يجروا على
أن يفعل ذلك بعد الآن . وسيكون من المسلى جدا
وضع حد لالاعيبه . أظن انه يوجد خلجان كثيرة
وفتحات حول ساحلك هنا ؟

- من المحتمل ، ويستطيع هارى أن يخبرك
بطريقة أفضل منى .

... ولا يوجد كثير من الناس هنا . لقد سمعت
أن « نافرون » هو البيت الكبير الوحيد فى الناحية .
- أجل . اعتقد انه كذلك .

- كم هو مكان مشالى بالنسبة لخارج على
القانون . وانى لارغب لو كنت أنا نفسى قرصانا ..

واذا علمت أن البيت بدون سيد يحميه ، وان سيدة
البيت جميلة مثلك ، يا دونا ..

– نعم ، يا روكنجهام ؟

– اكرر القول اننى لو كنت قرصانا ، وأعرف
كل هذه الأشياء ، لاردت بالتأكيد أن أعود الى هذه
الناحية مرة ومرة .

كانت دونا لاتزال تراقب هارى والطفلين .

– ولكنك لست قرصانا يا عزيزى روكنجهام .
وانما أنت فحسب عضو بالبلاط عاقل ، فاخر الثياب،
مدلل مفسود ، شديد الولع بالنساء والخمر .
وعلى هذا فهل تغير الموضوع ؟ فانى ضيقة الصدر به !

ونفضت عن مقعدها وسارت ببطء فى اتجاه
البيت .

قال وهو يقتفى أثرها :

– كان هناك وقت ما كنت تسأميننى او تسامين

حديثي . . أكنت بمثل هذا القدر من الفظاظلة بالنسبة
لخادمك الغريب الشكل الذى يقوم بخدمتك ؟

– أولى بك أن تسأله .

– أظن أنى سأفعل . لو كنت هارى ، لسألته
أسئلة كثيرة ، وكلها شخصية .

وانضم اليهما هارى نفسه ، وهو يمسح وجهه .
بمنديل حريرى وقال :

– من ؟ علام هذا ؟ فيم تتناقشان ؟

قال روكنجهام بابتسامة متألقة للغاية :

– اننا نناقش أمر خادمك . وانه لمن الغريب
جدا ان دونا لم تسمح لاحد غيره بأن يقوم بخدمتها
عندما كانت مريضة .

فوافقه هارى قائلا :

– أجل ، أجل روك على صواب ، كما تعرفين ،
يا دونا . فالرجل كان بمقدوره أن يسمح لنفسه بكل

أنواع الحريات • لقد كان ذلك شبيهاً من الخطورة
فعله • فأنت راقدة منهوكة القوى لآحول لك ولا قوة ،
والرجل يحوم حولك • كما أنه ليس خادماً قديماً
أيضاً • انى لا أعرف عنه غير القليل •

قال وكنجرام :

— اذن فانه لم يكن فى خدمتك منذ وقت
طويل ... ؟

— لا ، فنحن لا نأتى الى « نافرون » أبداً كما
تعرف • وانى من الكسل بحيث لا أعرف نصف الوقت
من هم الذين يقومون بخدمتى • عليه اللعنة • اظن
انتى يجب أن أطرده •

قالت دونا :

— لا • لن تفعل • سيظل وليم فى خدمتى
طالما راقنتى ذلك •

قال هارى :

— حسناً ، حسناً • لا داعى لاثارة الأعصاب

حول هذا الأمر • ولكن يبدو من الغريب ابقاء الرجل
معلقا حول حجرة نومك • ماهوذا ، يحضر خطابا من
شخص ما • انه يبدو كما لو كان سيصاب هو نفسه
بالحمى •

ونظرت دونا فى اتجاه الباب ، ورات وليم هناك
وثمة ورقة فى يده • كان وجهه أشد شحوبا من المعتاد ،
وعيناه تمان عن نوع من القلق •

قال هارى :

— ما هذا ؟

فاجاب وليم :

— رسالة من اللورد جودولفين يا سير هارى • وقد
أحضرها خادمه توا وينتظر جوابا •

فضى هارى ، ثم ناولها الى روكتجهام وهو يضحك
وقال :

– الصيادون يجتمعون ، ياروك • وسنحصل
على بعض المرح من هذا •

وقرأ روكنجهام المذكرة وهو يبتسم ، ثم مزقها
أربا • وقال :

– أية اجابة ستدلى بها ؟

كانت أفكار هارى تهيم كالمعتاد • • فقال متداركا:

– ماذا قلت ؟ أوه ، أجل ، اجابة على جودولفين •
أخبر الرجل ، يا وليم ، أن السيدة سانت كولب
وأنا سيسرنا أن نستقبل صاحب الفخامة والسادة
الآخرين هذا المساء على العشاء •

قال وليم :

– أجل ، ياسيدى •

وسالت دونا وهى تصفف خصلة من خصلاتها
إمام المرأة :

– وأية دعوة هذه ؟ ومن الذى سأسر
باستقباله ؟

قال هارى :

- جورج جودولفين ، تومى اويستك ، فيليب
راشلييه ، وآخرون ، وهم يزعمون القبض على
الفرنسى أخيرا ، وسنجتمع لنبحث الأمر معهم •
فلم تقل دونا شيئا ، ورات من خلال المرآة أن
روكنجهام يراقبها •

قال :

- ستكون حفلة مسلية ، ألا تظن ذلك ؟

قالت دونا :

- بل اشك فى ذلك ، وأنا أعلم من هو هارى
كمضيف • ستكونون جميعا تحت المنضدة عند
منتصف الليل •

وخرجت من الحجرة ، وعندما اغلقت الباب ،
نادت وليم بصوت خفيض ، فحضر اليها فى الحال
وعيناه مضطربتان •

قالت :

- ماذا فى الأمر • انك قلق • اللورد جودولفين
وأصدقائه - انهم لا يستطيعون أن يفعلوا شيئاً •
سيكون الوقت متأخراً جداً ، ستكون لامويت قد
أبحرت !

قال وليم :

- لا ، ياسيدتى • لن تكون قد أبحرت ، لقد
مبطت الى الخليج لاحذر سيمى • فوجدت أن السفينة
قد استقرت على صخرة عندما انحسر المد هذا الصباح ،
وأصيب القاع ببعض التلف وكانوا يعملون لاصلاح
التلف عندما ذهبت الى الخليج ، ولن تكون السفينة
قادرة على الابحار قبل أربع وعشرين ساعة •

فهامت عينها فى وجهها ، وابتعدت عنه •
وتطلعت دوناً من فوق كتفها • فاذا الباب الذى أغلقته
توا قد انفتح ثانية ، وكان روكنجهام واقفاً عند
مدخله ، يعبث بالحريز الرقيق فى اسورتى معصميه •

الفصل الرابع عشر

أخذ اليوم الطويل يشرف على نهايته . وجلس
روكنجهام ممسكا بكتاب مفتوح في يديه ، ولكنه نادرا
ما كان يقلب الصفحات ، وعندما كانت دونا تتطلع اليه
من وقت لآخر ، كانت تجسد عينيه مصوبتين اليها
باستمرار ، فضولتين وجائعتين .

لم يكن يعرف شيئا بالطبع ، ولكنها كانت
تعرف أنه كان يراقبها ، وشعرت انه كان يحاول
ان يقرأ أفكارها .

كانت أفكار دونا سارحة مع الرجال فى الخليج
وهم يحاولون أن يصلحوا السفينة ، ورااتهم بعين
خيالها فى المد المنحسر وهم باقدام حافية ، وبلا قمصان ،
والعرق يتصبب من ظهورهم . وهو يعمل معهم ،
وقد تبدت فى عينيه تلك النظرة المفعممة بالتصميم
التي تعلمت أن تحبها وتحترمها . . كان هناك خطر
يصدق بهم مثلما كان فى « فوى » بالنسبة له
ولرجالها ، ولم يكن هناك وقت الآن للأحلام .

على أية حال ، فانها يجب أن تذهب الى الغدير
قبل هبوط الليل وتطلب منه أن يقلع مع المد التالى ،
رغم أن « لامويت » قد تفرق فى الماء ، ولكن ما باليد
حيلة فالشبكة كانت تزداد انطباقا عليه .

لقد شوهدت السفينة وهي تتحرك فى اتجاه
الساحل ، هكذا أخبرها روكنجهام ، والآن قد مضت
ما يقرب من أربع وعشرين ساعة . واستطاع أعداؤه
أن يضعوا خططا عديدة خلال ذلك الوقت . ربما كان
هناك رقباء على التلال ويكمنون فى الغابات والليله

سيكون راشليه ، وجودولفين واويستيك بأنفسهم
فى نافرون ، ولا يعلم الا الله ما قد انطوت عليه
نواياهم .

كان الوقت بعد التاسعة عندما دخلوا وفى
أثرهم شبورة من المطر ، وجلس هارى وهو يلعن
الحرارة - ليلعب الورق مع روكنجهام . وزحفت
عقارب الساعة ، ولكن مازالت « لامويت » لم تبرح
الخليج .

فخرجت دونا مسرعة من الحجرة وصعدت
السلم الى حجرة نومها . وجذبت حبل الجرس
وانتظرت .. وبعد دقائق قليلة جاءت خادمة ضئيلة
الحجم .

قالت دونا :

- ارسلى لى وليم لو سمحت .

قالت الفتاة :

- انى آسفة ياسيدتى . ولكن رليم ليس موجودا فى البيت . لقد خرج بعد الخامسة ولم يعد .
- أين ذهب ؟

- لا أعرف إطلاقا ياسيدتى .
- لا يهم ، اذن ، اشكرك .

وغادرت الفتاة الحجرة ، واستلقت دونا فى الفراش ، ويداه خلف رأسها . لاشك أن وليم قد خطرت له نفس الفكرة التى خطرت لها . لقد ذهب ليحذر سيده من أن أعداءه يتوون الاجتماع على العشاء فى نافرون هذه الليلة ولكن ما الذى أبقاه بعيدا طيلة هذا الوقت ؟

وبعد فترة من الوقت وضعت دونا معطفا ونزلت السلم فى خفة وخرجت الى الحديقة .

كان العشب مبتلا بعد المطر ، وثمرمة رائحة للرطوبة تشيع فى الهواء .

وكانت قطرات من الماء تسقط من الأشجار في
الغابات . والطريق المتعرج الصغير المؤدى الى الخليج
موحلا ، أيضا ، لان الشمس كانت لا تزال خلف
السحب ، والأوراق تكون ظلا كثيفا . ووصلت الى
المكان حيث كانت تستدير عادة الى اليسار لتصل
الى الخليج ، واضطرتها بعض الأصوات ان تتوقف
فجأة ، وتتردد ، وانتظرت لحظة ، ويدها تلمس غصنا
منخفضا من شجرة . كان الصوت صوت عصا تتكسر
تحت قدم . فوقفت هادئة دون حراك . وعندما
ساد السكون ثانية ، تطلعت بنظرها عبر الغصن
الذى يخفيها . وهناك على بعد عشرين ياردة ، كان
ثمة رجل واقفا ، وظهره الى شجرة ، وبين يديه
بندقية .

واستطاعت ان ترى جانب وجهه تحت قبعته
المثلثة الخواف ، وكان الوجه غريبا لم تستطع التعرف
عليه ، ولكنه كان يقف هناك ، منتظرا ، يحاول ان
يسدد بصره في اتجاه الخليج .

وسقطت قطرات مطر ثقيلة عليه من أعلى
الشجرة ، فنزع قبعته ومسح وجهه بمنديله ، مديرا
ظهره اليها وهو يفعل ذلك . وتحركت فى الحال
بعيدا عن المكان الذى وقفت به ، وأخذت طريقها عدوا
صوب البيت .

كانت يداها باردتين ، فاحكمت وضع معطفها
حول كتفها . وعرفت أن هذا هو سبب عدم عودة
وليم . فاما أن يكون قد قبضوا عليه أو يكون مختبئا
مادام هناك رجل واحد ، فلا بد أن سيكون هناك
آخرون . ولم يكن الرجل الذى رآته من مواطنى
هلفورد ، ولكن من أتباع جودولفين ، أو راشليه ،
أو أويستيك . وعلى هذا ، فقد عرفت أن لاشىء
بمقدورها أن تفعله ، لاشىء . . . الا أن تعود الى البيت ،
وأصعد الى حجرتى ، وأرتدى ملابسى . وأضع قرطى
وقلادتى ، وأهبط الى حجرة المائدة وعلى شفتى
ابتسامة ، وأجلس على رأس المائدة مع جودولفين الى

يمسى وراشليه الى يسارى ، بينما رجالهم يواصلون
عمليات المراقبة هناك فى الغابات .

وعندما وصلت الى فتحة فى الأشجار حيث تبدأ
الحديقة ، ونظرت فى اتجاه البيت ، رأت أن النافذة
الطويلة لحجرة الجلوس كانت مفتوحة ، بينما كان
روكنجهام جالسا هناك ، يتطلع ناظرا الى السماء .
فانسحبت دوننا مختبئة خلف الأشجار . . . ورات
روكنجهام يزقب آثار الأقدام التى أحدثتها فى العشب
المبتل عندما أخذت طريقها الى الخارج . ثم تطلع الى
نافذة حجرة نومها ، وبعد دقيقة أو اثنتين تقسم
بحرص وأمعن النظر فى آثار الأقدام التى بينت مكان
عبورها على العشب واختفاءها بين الأشجار .

فقفلت دوننا راجعة الى الغابات ، وتحولت بعيدا
وتحركت خلال الأشجار الى الجانب الآخر من البيت .
ودخلت البيت فى هدوء وصعدت درجات السلم متجهة
الى حجرة نومها . وفيما هى ترقب الأمور من النافذة ،
رات روكنجهام يرتد راجعا عبر منطقة الأعشاب .

وأخذت ترتدى ملابسها ، يبطء وبعناية زائدة ،
وتضفر غداثر شعرها الفاحم حول أصابعها وتنظمه
خلف أذنيها .

وثبتت الياقوت بأذنيها ، والقلادة ذات الياقوتة
العظيمة حول جيدها . لأن دوناسانت كولب في ثوبها
الحريري الأصفر ، وبشعرها المرتب حسب المودة
وجواهرها ، يجب أن لا تبدو إطلاقا أشبه بصبي
السقيفة « لامويت » الذي لوحث بشرته الشمس ،
والذي وقف بأسفل طاقتة قبليب راشليه منذ خمسة
أيام والمطر يقطر من قميصه .

ونظرت إلى نفسها في المرآة ، ثم تطلعت إلى
الصورة المرسومة على الجدار ، ورأت مدى ما اعتراها
من تغير ، حتى في الأساييع القليلة التي عاشتها في
« نافرون » كان وجهها أقل تجعدا وسيما عديم
الرضا قد ولت عن فيها . كما كان ثمة تعبير مختلف
في عينيها ، لم تكن ثمة وسيلة لاختفاء ذلك . فقد
كانت يداها وجيدها أيضا قد لوحتهما الشمس .

وخطر لها انه ما من أحد سيصدق أن هذا نتيجة الحمى ؟ ربما يكون هارى هو الذى سيصدقها لأنه ضعيف الخيال ، أما روكنجهام فلن يصدقها أبداً .

وبعد فترة من الوقت سمعت الجرس الكبير يدق فى الفناء ، معلناً وصول أول الضيوف مستقلين العربة .

وبعد دقائق قليلة ظهر صوت الجياد ، ثم صليل الجرس مرة أخرى ، وأمكنها الآن أن تسمع وقع الأصوات القادمة من قاعة الطعام بالأسفل ، وصوت هارى وقد علا على أصوات الآخرين ، وكان الليل قد بدأ يرخى سدوله . وكانت الحديقة غارقة فى الظلال خارج نافذتها ، والأشجار ساكنة . وفكرت انه بالأسفل هناك ، يقف ذلك الرجل المسلح ، وربما يكون قد انضم إليه آخرون الآن ، وجميعهم ينتظرون هناك ، وظهورهم الى الأشجار ، فى صمت وسكون ، حتى تنهى عشاءنا هنا فى البيت ، وينظر أويستيك الى جودولفين وإلى هارى وهارى الى روكنجهام ، وعندهذ

يدفعون كراسيهم الى الخلف ويبتسم كل منهم الى الآخر ، ويحررون سيوفهم من أغمادها ، وينزلون الى الغابات . وفكرت انه لو حدث هذا منذ مائة عام ، لامكن الاستعداد له ، ولكانت هناك قطرات توضع في كؤوسهم لتجعلهم ينامون - ولكن مثل هذا الأمر لا يحدث منذ مائة عام مضت ، وأمثال هذه الأشياء لم تعد تحدث بعد . . . وكل ما يمكنني أن أفعله هو أن أجلس الى المائدة وابتسم لهم ، وأشجعهم على الشراب .

وفتحت الباب ، فانبعث صدى الأصوات من قاعة الطعام . وعبر الردهة كان الطفلان نائمين بهدوء ، فقبلتهما ، وفتحت الستائر بحيث يصل اليهما هواء الليل البارد من النافذة المفتوحة . وعندئذ ، وبينما كانت تعود الى السلم ، سمعت خلفها صوتا خفيفا متقطعا كما لو كان ثمة شخص يتلمس طريقه ، في الظلام يتحرك في الدهليز .

وهمست :

- من هناك ؟

لم يأتها جواب • وانتظرت هنيهة وهي خائفة ،
بينما كانت أصوات الضيوف المرتفعة تنبعث من
أسفل ، وسمعت الصوت مرة أخرى ، همسا خفيضا
وانفاسا تتردد •

وأحضرت شمعة من حجرة الأطفال ، وخفضت
ناظرها في الممر الطويل • وهناك ، كان ولیم ، على
الأرض ، مستندا الى الحائط ، ووجهه أبيض بلون
الطباشير ، وذراعه اليسرى مدلاة بلا حياة الى جانبه •
فركعت بجواره ، ولكنه دفعها جانبا ، وفمه الشبيه
بالزرار يتلوى ألما • وهمس قائلا :

— لا تلمسينى ياسيديتى • فهناك دم على
ملابسى وسيلوث ثوبك •
قالت :

— يا عزيزى ولیم • هل أوذيت أذى بالغا ؟
فهز رأسه ، ويده اليمنى مضغوطة الى كتفه •
وقال :

— انه لاشئ ياسيديتى • • مجرد سوء حظ •
قد ألم بى الليلة دون كل الليالى •

وأغمض عينيه ، وقد أضعفه الألم ، وكانت تعرف أنه يكذب عليها . وسأله :

— كيف حدث هذا ؟

قال :

— فيما أنا راجع خلال الغابات ، يا سيدتي ، رأيت أحد رجال لورد جودولفين ، وحاول أن يستوقفني ، فحاولت الهروب ، ولكنني تلقيت هذا الحشد .

فهمست :

— سنذهب الى حجرتي ، وسأغسل جرحك ، واضمده .

ولما كان الآن في حال الوعي فحسب ، فانه لم يبد اعتراضا ، بل سمح أن تقوده عبر الممر الى حجرتها . وهناك أغلقت الباب ، وأوصدته وأرقدته في سريرها . وأحضرت ماء وفوطة ، وطهرت الجرح في

كتفه بقدر ما تستطيع ، وضمدته ، فرفع اليها عينيه
قائلا :

– يجب أن لاتفعل هذا من أجل ياسيديتي .

فهمست :

– ارقد ساكنا ، ارقد ساكنا واسترح !

كان وجهه لايزال باهتا ، فانتابها اليأس ،
ولا شك أنه أدرك ذلك ، لأنه قال :

– لا تقلقى ياسيديتي . سأكون على مايرام .
وقد نجحت على الأقل . اذ انى ذهبت الى « لأمويت »
ورأيت سيدى .

فسالت :

– هل أخبرته أن جودولفين وأويستيك وغيرهما
قدموا للعشاء هنا الليلة ؟

– أجل ياسيديتي . . . وابتسم بتلك الطريقة

الخاصة به وقال : أخبر سيدتك اننى لست منزعجا ،
وأن « لامويت » تحتاج الى صبي سفينة .. !

كان هناك وقع خطوات بالخارج ، وقرع أحدهم
الباب .

ف قالت دونا :

— من هناك ؟

فاجابها صوت الخادمة النحيلة يقول :

— السيد هارى يرسل كلمة ياسيدتى ، انه
والسادة ينتظرون للعشاء .

قالت دونا :

— اخبرى السير هارى ان يبدأ ، وسألحق بهم
خلال لحظة ..

وهمست فيما هى تنحنى على وليم :

— والسفينة — هل السفينة بخير ، وهل
ستبحر الليلة ؟

ولكنه تصلح اليها الآن دون أن يتعرف عليها ،
ثم أغمض عينيه ، وعرفت أنه قد فقد الوعي .

وغسلت الدم عن يديها وغادرت الحجرة ،
وعندما ذهبت داخله قاعة الطعام بالطابق الأسفل ،
سمعت صوت سحب الكراسي على الأرضية الحجرية
بينما كان الضيوف ينهضون ويتهيأون لاستقبالها .
ورفعت رأسها عاليا ، وكانت هناك ابتسامة تكسو
وجهها ، ولكنها لم تكن تبصر شيئا ، لا الضوء الساطع
المنبعث من عديد الشموع ، ولا المائدة الطويلة وقد
اصطفت عليها الأطباق ، ولا جودولفين في معطفه
الأرجواني ، ولا راشليه بشعره المستعار الرمادي ،
ولا أويستيك وهو يلمس سيفه ، ولا كل عيون الذين
كانوا يراقبونها والذين كانوا ينحنون وهي تمر بهم
صوب مقعدها عند رأس المائدة . . وانما كانت ترى
رجلا واحدا قد وقف فوق ظهر سفينته في الخليج
الساكن ، وهو يقول لها الى اللقاء في داخل نفسه
اذ هو ينتظر المد . .

الفصل الخامس عشر

وهكذا حدث أن كان هناك لأول مرة منذ سنوات عديدة احتفال فى قاعة الطعام الكبيرة فى بيت « نافرون » وكانت الشموع تلقى أضواءها على الضيوف وقد جلسوا كل بحذاء الآخر ، ستة على كل جانب ، من المائدة الطويلة ، وكانت المائدة نفسها رائعة تختال بزينتها الفضية وبالسلاسل المليئة بالفاكهة . وعند أحد طرفيها جلس المضيف ، أزرق العينين ، أحمر الوجه ، وشعره المستعار فى وضع قلق على رأسه ، يضحك

بصوت مرتفع دائما ضحكات طويلة عند كل نكتة تقال
.. بينما كانت المضييفة تجلس عند الطرف الآخر
وهي تتظاهر بانها تتناول طعامها في هدوء تام ،
لا يحرك ساكنها محرك وتستدير لتنظر من حين لآخر
الى الضيوف الذين بجوارها كما لو كان ذلك الجالس
الى يمينها وذلك الذى عن يسارها هما الوحيدين اللذين
يهمانها من الدنيا - لقد كانت ملكا لهما هذا المساء
أو وقتا أطول ان أرادوا .

وكانت هذه ، حسبما يفكر كل ضيف جلس الى
المائدة هي السيدة سانت كولب الشهيرة ، التى تسمع
عنها من وقت الى آخر حكايات عديدة ، والتى أثارت
حديث الناس فى لندن أحيانا كثيرة

وهكذا كان الضيوف فى مبدأ الأمر متوجسين ،
عازفين عن الكلام ، ومتحفظين . ولكن عندما تكلمت ،
وتطلعت اليهم ، ومألتهم عن أحوال بيوتهم ، وعن
نوع الرياضة التى يؤثرها كل منهم ، ومن منهم
قد تزوج ومن لم يتزوج ، وأوحت الى كل منهم على

حدة أن يعتقد بأن كل كلمة ينطق بها كانت ذات أهمية بالنسبة لها . . ولها سحرها ، وأنها لو أتاحت لها الفرصة ، لفهمته بطريقة لم يفهمه أحد بها من قبل ، وعندئذ انبسطوا بعد انقباض ، وبدأوا يشعرون بارلا تياح .

وحدث بتروس الشاب نفسه قائلا : يا للتفاهة . . فكل القصص الشريرة التي حيكت عنها إنما هي حديث مفعم بالحقد تتناقله نسوة قبيحات الشكل . وفكر أويستيك في نفسه : بحق السماء يالها من زوجة يحوزها المرء ، ليغلق عليها الأبواب ولا يدعها تغيب عن بصره . وكان حاضرا للحفل « تريماين » من الشمال الشرقي ، و « كارنتيك » ذو الشعر المستعار الأحمر والذي كان يمتلك كل الأرض على الساحل الغربي . . ولم يكن للأول زوجة ، وعلى هذا فقد لازمها بنظره دون أن ينبس بحرف ، في عبادة ووله لا يخفيان . . وكان الثاني يحوز زوجة أكبر منه سنا بعشر سنوات وتساءل ، عندما التقت عيناه بعيني دونا عبر المائلة ، عما اذا كانت هناك

أيه امكانية لرؤيتها بمفردها ، فيما بعد ، عندما ينتهي
العشاء . وحتى جودولفين ، الراضى عن ذاته .
جودولفين بعينه القبيحتين وأنفـه المنتفخ ، صرح
فيما بينه وبين نفسه ، رغما عنه ، أن زوجته هارى
ذات اغراء . . أما فيليب راشليه ، الذى يلزم الصمت
دائما فى حضرة النساء ، والذى يتجنب الحديث
دائما ، أخذ فجأة يحدثها عن طفولته ، وكم كان
مغرما بأمه ، التى ماتت عندما كان فى العاشرة !

وقاربت الساعة الحادية عشرة ، وحدثت دونا
نفسها ، باننا مازلنا نأكل ونشرب ونتحدث ، وإذا
أمكننى الاستمرار على هذا النحو ، ولو بعض الوقت ،
لاتاح له ذلك وقتا هناك فى الخليج ، لأنه لابد أن
المد يرتفع طوال الوقت ، وحتى لو أصلحت لامويت
بعض الشئ ، فانها يجب عليها أن تبادر بالاقلاع .

وأشارت بعينها للخدم ، فملأوا الأكواب مرة
أخرى . واستمرت ضوضاء الحديث ، وبينما هى
تلتفت الى الضيف الجالس الى يسارها وتبتسم ،

تساءلت عما اذا كان وليم قد افاق من اغماؤه ، أم لا يزال راقدا على سريرها ، ووجهه يبدو مثل وجوه الموتى وعيناه مغمضتين ، وتلك البقعة الحمراء القاتمة تنتشر على كتفه .

تساءل « تريماين » وهو يتطلع اليها بشغف ،
ووجهه مشوب بحمرة السرور :

– أوجد الكثير من الرقص فى البلاط ؟

فأجابته :

– لماذا ؟ أجل ، يجب أن تأتى الى لندن ، كما تعرف ، عندما يعود هارى وساعثر على زوجة لك .
ولكنه هز رأسه مرتبكا ، ومنقبضا .

وفكرت محدثة نفسها أن جيمس سيغدو مثله خلال عشرين عاما ويأخذ طريقه كله فى الصباح ليحدثنى عن آخر مغامراته ، وكل هذا سيكون طى النسيان ، وربما تذكرته فجأة ، وأنا أتطلع الى عيني جيمس ووجهه المغرم ، وسأخبره كيف استبقيت

اثنى عشر رجلا على العشاء حتى منتصف الليل ،
بحيث يستطيع الرجل الوحيد الذى أحبته أن يهرب
الى فرنسا ويخرج من حياتى الى الابد ٠٠ ١

كان فيليب راشليه يتحدث اليها قائلا :

— أقسم اننى رأيتك من قبل ياسيديتى
العزيزة ، ولكنى عاجز تماما عن تذكر الزمان
والمكان ٠٠

ونظر بشدة الى طبقه ، زاويا ما بين حاجبيه ،
كما لو كان يريد أن يجبر الطبق على أن يذكره بمكان
المشاهدة ٠

**وقالت دونا وهى تبسم برقة وتلفع قلعه
اليه :**

— مزيدا من الخمر للسيد راشليه ٠ أجل ،
أنا أيضا أشعر بأنا قد تقابلنا ، ولكن لابد أن ذلك كان
منذ ست سنوات ، عندما أتيت الى هنا بعد الزواج ٠

قال راشليه وهو يهز رأسه :

— لا يمكننى أن أقسم انه لم يكن حينذاك .
انه شىء فى صوتك يؤكد لى اننى سمعته منذ وقت
قريب .

قال روكنجهام :

— ولكن دونا لها ذلك التأثير على كل رجل ،
فجميعهم يشعرون بعد رؤيتها ، انهم قد عرفوها من
قبل ، وستجد يا عزيزى راشليه ، أنها ستبقىك متيقظا
طول الليل .

قال كارتليك :

— أعتقد انك تتحدث عن خبرة .
وابتسم روكنجهام وهو يرتب الحرير باسورتيه .
وفكرت دونا فى نفسها قائلة : كم أبغضه ،
بعينه الشبيهتين بعيني القطة وابتسامته الوجيهة ،
وكم يسره أن يعتقد أن كل من يجلس الى هذه المائدة
يبادلنى الحب .

سأل فيليب واشليه :

– هل كنت مرة في « فوى » .

فاجبته :

– لم أقض أبدا يوما واحدا في حياتي هناك .

وأفرغ قدحه في جوفه ، وهو لا يزال يهز رأسه
بارتياب وقال :

– هل سمعت كيف سرقت ؟

فأجاب :

– أجل حقا . وانه لسوء حظ شديد بالنسبة

لك . أو لم تصلك أنباء عن سفينتك منذ ذلك الحين ؟

فقال بمرارة :

– ولا كلمة واحدة . انها آمنة في ميناء فرنسي

الآن وما من طريقة لاستردادها ، ولكنى أؤمل أن
أحقق انتقامي الليلة .

فاختلست دوناً نظرة سريعة الى الساعة
الموضوعة فوق السلم . لم يتبق الا عشرة دقائق على
منتصف الليل . فقالت وهي تبسم لجودولفين :

— هل كنت أيضاً مهتما بضياح سفينة راشليه ؟
فأجاب بجفاء :

— أجل لقد اهتممت .

— ولكن أرجو ألا تكون قد جرحت .

— لا ، لحسن الحظ ، كان الشياطين في غاية
السرور لتمكنهم من الهرب . انهم مثل كل الفرنسيين
قد فضلوا الهرب على القتال الشريف .

— وهل كان قائدهم في الحقيقة ذلك الرجل
المتوحش الذي أخبرتني عنه ؟

— بل أسوأ عشرين مرة . أشد المجرمين الذين
رأيتهم في حياتي تعطشا للدماء وأشرهم منظرًا .

قال فيليب راشليه :

— كانت هناك امرأة على سطح « ميرى فورشن »

وأمكنني أن أراها على سطح السفينة ، بنفس الوضوح
الذي أستطيع أن أراك به الآن . كانت ذات وجه
جسور لا حياة به ، وثمة جرح كبير بوجهها ، وشعرها
يفطى عينيها . لاشك أنها امرأة منحلة اصطادوها
من المياه الفرنسية !!

واضاف جودولفين قائلا :

— وكان هناك صبي . صبي بائس خامل العود
جاء يقرع باب فيليب . وأقسم أنه كان شريكا في
الامر . كان له صوت خفيض وشكل فتاة يثير
التقرز .

قالت دونا :

— هؤلاء الفرنسيون قليلو الرجولة .

قال راشليه :

— ما كانوا يفلتون من أيدينا أبدا لو لم تتغير
الرياح ، وكان بمقدور جورج أن يصيب الرجل ولكنه
أخطأ .

- ولم كان ذلك يا سيدى ؟

فبدأ جودولفين حديثه وهو يشعر بشيء من الخجل :

- لم أكن فى الوضع الذى يلائمنى .

وصاح هارى وهو يتطلع من الجانب الآخر للمائدة ، وقد انفجر ضاحكا :

- لقد سمعنا جميعا بالأمر . يمكنك التأكد من ذلك يا جورج . لقد فقدت شعرك المستعار ، أليس كذلك ؟ لقد اغتصب الرجل الشرير شعرك المستعار .

فتحولت كل العيون فى الحال واستقرت على جودولفين الذى جلس جامدا كقضيبي من حديد ، ناظر الى القدرح الذى يواجهه ..

فقالت دونا مبتسمة :

- لاتلق بالا اليهم ، ياسيدى لورد جودولفين العزيز . وعليك بالمزيد من الشراب فحسب .

لم يتبق على منتصف الليل الا خمس دقائق ،
وكان هناك تريماين الصغير يناقش الرياضة مع
بنروز ، ورجل لم تسمع باسمه كان منحنيا في اتجاه
روكنجهام ، يحدثه بقصة قدرة وقد حجب وجهه
بيده ، وكان كارتشيك يتطلع اليها عبر المائدة
وهو يبتسم ابتسامة لم تخف الرغبة في عينيه . وكان
فيليب راشليه يلتقط الفاكهة بيده الغليظة التي
يكسوها الشعر ، بينما هارى ، وهو شبه راقد في
مقعده يغنى لنفسه أغنية بلا نغمة واحدى يديه ممسكة
بشغف على القدح والأخرى تنقر بتكاسل على المائدة ،
ولكن أويستيك قفز فجأة ناهضا ، وهو يتطلع الى
الساعة ، وصاح بصوت كالرعد :

— أيها السادة ، لقد أضعنا ما فيه الكفاية من
الوقت . هل نسيتم جميعا اننا التقينا الليلة من أجل
القيام بعمل عاجل بالغ الأهمية .

ودقت الساعة الكبيرة فى الخارج معلنة منتصف

الليل . ونظر أويستيك الى مضيافته . ونهضت دونا واقفة في الحال وقالت :

— أتريدنى أن أذهب ؟

فصاح هارى وهو يفتح احدى عينيهِ :

— هراء ، دع زوجتى تبقى بمكانها من المائلة .
اللعنة . فالحفل سيصبح بلا معنى بدونها . الحفلات
تنفع دائما . انى أشرب فى صحتك يا جميلتى ،
حتى ولو سمحت للخدم بالدخول والخروج من حجرة
نومك .

قال جودولفين :

— لقد انتهى وقت المزاح يا هارى .

وتحول الى دونا قائلا :

— لعله يمكننا أن نتحدث بحرية أوفر اذا لم
تكونى موجودة هنا . فالأمر كما قال أويستيك
بالضبط ، لقد أصبحنا جميعا ناسين لهدفنا .

قالت دونا :

— انى اقدر موقفكم • ولا احلم بالوقوف فى طريقكم •

وعندما وقفوا جميعا ليدعوها تمر ، دق الجرس الكبير بصوت مرتفع فى الفناء الخارجى •

قال هارى وهو يغالب النعاس :

— من على الأرض يكون ذاك ؟ من يجىء لتناول العشاء فى هذه الساعة ؟ دعنا نفتح زجاجة أخرى من الخمر •

قال اويستيك :

— نحن جميعا هنا • ولا ننتظر أحدا • وقد كان اجتماعنا سرا •

فانبعث صوت الجرس مرة أخرى • وصاح هارى :

— فليذهب أحدكم ويفتح الباب • أين ذهب الخدم جميعا ؟

ودهب روكنجهام الى الباب الذى يقود الى المطبخ
وفتحه • صاح :

— هاللو ! هل أنتم نائمون جميعا ؟

فلم يأتته جواب • وكان الدهليز مظلمًا وساكنًا •

ودق الجرس للمرة الثالثة ، فذهب اويستيك
الى الباب وهو يسب ويلعن وأخذ يسحب القضبان •

قال راشليه :

— لابد انه أحد رجالنا جاء ليبلغنا خبرا •
واحد من الرجال الذين وضعناهم فى الغابات •

وانفتح الباب ، وصاح اويستيك فى الظلام :

— من يريد أن يدخل بيت نافرون ؟

فجاء الجواب :

— جان بنوا أوبرى ، فى خدمتكم أيها السادة •

ودخل الفرنسي الى القاعة ، شاهرا سيفها في
يده ، وثمة ابتسامة على شفثيه . وقال :

- لا تتحرك يا اويستيك . وانتم جميعا .
ابقوا في اماكنكم . هناك مسدسات مصوبة الى كل
واحد منكم . واول رجل يتحرك سنطلق على راسه
النار . . . !

ورأت دونا ، فيما هي تتطلع الى اعلى السلم ،
بيربلان واقفا عند قمته ، ومعه رجل آخر بجواره .
وكان ولیم واقفا عند باب المطبخ ، صاحب الوجه
ولكن متماسك الاعصاب ، واحدى ذراعيه تتدلى بلا نفع
الى جانبه بينما يشهر بالاخري سيفها الى عنق
روكنجهايم .

قال الفرنسي :

- اجلسوا لو سمحتم ، ولن أستبقيكم طويلا .
واما السيدة فيمكنها أن تفعل ما تشاء ، ولكن عليها



... واقتحم عليهم حفل العشاء !

أولا أن تعطيني الياقوتتين اللتين تضعهما في أذنيها ،
لأن لدى رهان بخصوصيهما مع صبي سفينتي .
ووقف بجوارها ، منحنيا ، يلعب بسيفه ، بينما
يراقبه اثني عشر رجلا في بغض وخوف ٠٠ ١

الفصل السادس عشر

لم ينبس أحد ببنت شفة ، ولكن كل واحد كان يراقب الفرنسي فيما هو واقف هناك مبتسما ، ويده ممدودة للجواهر .

كانوا خمسة ضد اثني عشر - ولكن الخمسة كانوا مسلحين ، وكان الاثنى عشر قد افرطوا في الطعام والشراب ، والسيوف المدلاة الى جنوبهم لم تفارق اعمادها . كانت يد اويستيك لا تزال على الباب ، ولكن

أحد رجال لامريت كان واقفا بجواره ، ومعه مسدس
مصوب الى قلبه ، واغلق اويستيك الباب ببطء واعاد
وضع القضبان . وهبط بيربلان السلم ومعه زميله ،
واحتل كل منهما وضعا عند كل طرف من القاعة
الطويلة ، بحيث اذا امتدت يد أى رجل الى سيفه ،
فسيردى الرجل قتيلا كما قال سيدهم . واستند
روكنجهام الى الحائط ، وهو يرقب سيف وليم ، ومرر
لسانه على شفتيه ولم يتكلم . وليس غير المضيف
فحسب ، الذى غرق ثانية فى مقعده ، وهو يتطلع
حواليه بلا فهم ، فيما هو يرفع فى وهن قدح خمر الى
شفتيه .

وفكت دونا الياقوتتين من قرطها ووضعتهما فى
اليد الممدودة أمامها ، **وقالت :**
- أهذا كل شيء ؟

فاشار بسيفه الى القلادة التى تحيط بجيدها .
وقال رافعا أحد حاجبيه :

- هلا تخليت لى عن هذه أيضا ، فان صبى
سفينتى سيلعننى اذا لم أخذها .

فخلعت قلادتها وبدون كلمة وبدون ابتسامة
وضعتها في يده .

فقال :

- اشكرك . اتعشم أن تكون الحمى قد فارقتك ؟
- ظننت ذلك . ولكن وجودك هنا سيعيدها لي
ثانية ولا شك .

فقال بجذ :

- ذلك شيء يؤسف له . قد لا يرتاح له ضميري .
ان صبي سفينتي يعاني من الحمى من وقت لآخر .
ولكن هواء البحر يفعل معه الاعاجيب . يلزمك أن
تجربه .

وفيما هو ينحني ، وضع الجواهر في جيبه
وابتعد عنها . وقال . وهو واقف أمام لورد جودولفين :

- ان آخر مرة قابلتك خلالها يالورد جودولفين

كان لي السرور بأن آخذ باروكتك . وتلك أيضا ، كانت
بخصوص رهان . وربما امكنني هذه المرة أن أخخذ
شيئا أكثر قيمة . ومد يده الى النجمة الذهبية والشريط
المثبتين بمعطف جودولفين وقطعه بسيفه .

— وسلاحك أيضا ، يؤسفني أن أقول انه شيء
لا يمكنني أن اتركه الى جانبك .

وسقط سيف جودولفين الى الأرض . وانحنى
الفرنسي ثانية . وذهب الى فيليب راشليه . **وقال :**

— مساء الخير يا سيدي . انك تبدو الآن اقل
انفعالا مما كنت عليه عندما قابلتك لآخر مرة . ويجب
أن اشكرك على هديتك « ميرى فورشن » . انها سفينة
رائعة . لن تعرفها اذا رأيتهما الآن . اعطني سيفك
يا سيدي لو سمحت . وماذا لديك في جيوبك ؟

فلمع غضب وحشي في عيني راشليه . وقال :

— ستدفع ثمن هذا ، عليك اللعنة .

قال الفرنسي :

– من الممكن ، ولكن الى ان يحين ذلك يتعين عليك أنت ان تدفع .

وافرغ نقود راشليه فى حقيبة مثبتة الى وسطه .

ودار حول المائدة ببطء ، وفقد كل ضيف بدوره السلاح المعلق الى جانبه ، والنقود التى بجيبه ، والحواتم من أصابعه والدبوس المرصع فى عنقه . وعندما أتى الى طرف المائدة ، ألقى ببصره الى الخساتم الذى باصبع هارى ، وقال :

– ذلك حجر جميل للغاية !

وأجابه هارى بأن نزعته من اصبعه وألقى به فى وجه الفرنسي ولكنه امسكه فى يده ورفعته الى الضوء .
وقال :

– حجر لا يشوبه عيب . ولكنى لن آخذه .
اعتقد يا سيرهارى أنى سرقتك بما فيه الكفاية .

وبينما هو يتحنى أعاد الحاتم ثانية الى زوج دونا
وقال :

- والآن يا سادة • لدى التماس آخر يجب أن
اقوم به • واخشى ألا يكون مهنبا بما فيه الكفاية ،
ولكنه ، والأمور على ما هي عليه ، ضرورى جدا • أنتم
ترون ، أنى أريد أن اعود الى سفينتى ، فاذا انضمتم الى
رجالكم فى الغابات واقتفيتم أثرى ، فان هذا سيقرب
خطى رأسا على عقب • بالاختصار ، يجب على أن
اسألکم أن تنزعوا احذيتکم وجواربکم واغطية ارجلكم
وتعطونها لرجالى الموجودين هنا • • !

فتطلعوا اليه وقد احمرت وجوههم غضبا ،
وصاح اويستيك :

- ألم تسخر منا بما فيه الكفاية ؟

فابتسم الفرنسى قائلا :

- أجل • ولكن عليكم أن تطيعوا • فالليل دافئ ،
كما تعرفون • وانتم يا سيدتى سانت كولب ، هلا

تعطفت بحيث تذهبين الى حجرة الجلوس . فهؤلاء
السادة لن يأبهوا بتعرية انفسهم أمامك ، فيما أظن .
وابقى الباب مفتوحا أمامها لكي تخرج ،
وعندئذ قال ، فيما هو ينظر من فوق كتفه :

— ساعطيكم خمس دقائق لا اكثر . وأنتم
يا بيربلان ، ولوك ، ووليم . . راقبوا السادة ، وبينما
هم يخلعون ، فان السيدة سانت كولب وأنا سنتناقش
في أمور اليوم .

وتبعها الى حجرة الجلوس واغلق الباب . ثم
لقى بسيفه على كرسى وضحك ، ومد ذراعيه . فذهبت
اليه ووضعت يديها على كتفيه . وسأله :

— لماذا اقدمت على هذه المخاطرات ؟ ألا تعلم ان
الغابات والتلال مغطاة بالرجال ؟

قال :

— أجل !

– لم اتيك الى هنا اذن ؟

– لأنني اعتقد كما تعلمين أن أشد الافعال خطورة
هي في الاغلب اكثرها نجاحا . كما انني لم اقبلك
منذ ما يقرب من اربع وعشرين ساعة . . !

وأحني رأسه وتناول وجهها بين يديه .

قالت :

– ماذا خطر لك عندما لم أعد لتناول الافطار .

اجاب :

– لم يكن هناك متسع من الوقت للتفكير . لأن
بيربلان ايقظني بعد شروق الشمس مباشرة ، ليخبرني
عن التلف الذي أصاب لامويت . وعندئذ ، فيما بعد ،
عندما كنا نعمل جميعا لاصلاحها ، جاء وليم حاملا
اخبارك .

– وهل اتى وليم للمرة الثانية ؟

– أجل ، ما بين الخامسة والسادسة هذا المساء .

وحذرني من الحفل المقام هنا في « نافرون » ، وقررت
عندئذ ما يجب علي أن افعله . واخبرته بالطبع ، ولكن
ذلك الجرح الذي تلقاه في طريق عودته منعه عن
اخبارك .

— لقد واصلت التفكير فيه ، أثناء العشاء ، فيما
هو يرقد مجروحا فاقد الوعي على سريري .

— ولكنه جر نفسه حتى النافذة لكي يمكننا من
الدخول ، كما خططنا تماما . . . وخدمك في حجرة
مخزنك . مقيدين ظهورا لظهر ، مثل الرجال الذين
وجدناهم على « ميري فورشن » . هل تريد استرداد
احبارك الكريمة ؟

ووضع يده في جيبه بحثا عن المجوهرات ، ولكنها
هزت رأسها . وقالت :

— الافضل لك أن تحتفظ بها لتذكرك بي !

فلم يقل شيئا ، ولكنه تطلع من فوق رأسها ،
وهو يلمس شعرها . وقال :

- ستبحر لامويت خلال ساعتين ، اذا سار كل
شيء كما يجب • الاصلاح ليس جيدا • ولكنه يجب أن
يكفى حتى نصل الى الساحل الفرنسى ••

فسالت :

- وماذا عن الطقس ؟

الرياح فى اتجاه اليمين ومعتدلة بما فيه الكفاية •
ويتعين علينا أن نصل الى الجانب الآخر فى خلال ثمانى
عشرة ساعة أو أقل ••

كانت دونا صامتة ، واستمر يربت على شعرها •

وقال :

- ليس لدى صبي سفينة ، ألا تعرفين صبيا
طيبا يرضى بالابحار معى ؟

فنظرت اليه • ولكنه كان قد كف عن الابتسام
وابتعد عنها • وامسك بسيفه وقال :

- أخشى أن اقول انه سيتعين على أن آخذ وليم •

لقد انجز عمله فى نافرون • وقام بخدمتك كما يجب ،
أليس كذلك ؟

اجابت :

— على خير وجه !

كان هناك وقع خبطات على الباب ، فقال
بالفرنسية :

— أجل • هل فعل الرجال ما أمرتهم به ؟

فاجاب وليم من خلال الباب :

— لقد فعلوا يا سيدى •

— حسنا ، اخبر بييربلان أن يقيد أيديهم خلف

ظهورهم وياخذهم الى حجرات النوم بالطابق الأعلى •
اغلق الأبواب عليهم وادر المفاتيح • فلن يزعجوننا لمدة
ساعتين ، تعطياننا الفسحة التى نريدها من الوقت •

— أجل يا سيدى ••

– ٠٠ وأنت يا وليم ٠٠ كيف حال ذراعك ؟ ٠

– تؤلمنى قليلا يا سيدى ، ولكن لا يهم ٠

– ذلك خير ٠ لانى اريدك أن تأخذ السيدة سانت

كولمب الى تلك البقعة من الرمال التى تبعد ثلاثة أميال
فى هذا الجانب من « كوفراك » !

– أجل يا سيدى ٠

– وانتظر هناك المزيد من أوامرى ٠

– فاهم يا سيدى ٠

ونظرت اليه متحيرة ، فاقبل ووقف فى مواجهتها ،

وسيفه فى يده ، فسأله :

– ماذا تنوى أن تفعل ؟

فتمهل دقيقة قبل أن يجيب ، وقد فارقت

الابتسامة ، واظلمت عيناه ٠ وقال :

– لقد طلبت من وليم أن يأخذك الى مكان قريب

من « كوفراك » بحيث يمكنك أن تقررى ما ترغبين فعله . واذا انا ، وبيربلان وبقيتنا عدنا سالمين الى السفينة رغم الحراس المنتشرين فى الغابة ، وأبحرنا فى الحال ، فانا سنكون فى ذلك المكان عند شروق الشمس . وسأتى اليك فى قارب لأحصل على اجابتك . واذا لم يمكنك رؤية لامويت عند مطلع النهار ، فستعرفين أن ثمة خطأ قد اصاب خطتى . وربما تمكن جودولفين من التشفى بتعليق ذلك الفرنسى البغيض بحيث يتدلى من اطول شجرة فى حديقته .

وابتسم وخطا خارج النافذة . وقال :

— لقد احببتك يا دونا دائما ، ولكنى احببتك اشد الحب ، فيما اعتقد ، عندما القيت بنفسك على سطح « ميرى فورشن » ، فى ملابس بيربلان ، والدماء على وجهك ، والمطر يقطر غزيرا من قميصك الممزق ونظرت اليك ، وضحكت ، وعندما مرت الرصاصة فوق رأسك وهى تصفر .

ثم استدار ، واختفى فى الظلام

ووقفت ساكنة ، بلا حراك ، ويدها على صدرها ،
والدقائق تتلاحق سراعا . وأخيرا ادركت مثلما يدرك
من يفيق من حلم انها كانت بمفردها . كان البيت
ساكنا . وتبينت أنها تمسك بقرطها الياقوتى وقلادتها
فى يديها . وهبت ريح خفيفة من خلال النافذة المفتوحة
ودون أن تعرف ما كانت تفعل ، ذهببت اليها واغلقتها
ثم ذهببت الى الباب الذى يؤدى الى قاعة الطعام وفتحته
على مصراعيه .

كانت هناك الصحف والأطباق على المائدة ،
والفضيات والآكواب . ولم يكن هناك غير شمعتين
تشتعلان ، بنور ضعيف واهن . لقد انهى رجال لامويت
عملهم ورحلوا . وهم يأخذون طريقهم الآن خلسة الى
السفينة ، وسيدهم معهم ، وسيفه فى يده . ودقت
الساعة الموضوعة فى الفناء معلنة الواحدة - اشارة حادة
عالية . بينما يرقد على الأرض بالطابق الأعلى ضيوف
نافرون ، مجردين من ملابسهم ، ومقيدين من معاصمهم
لا حول لهم ولا قوة ، وقد أفعمت قلوبهم غضبا
وحقدا . ولكن هارى كان مستغرقا فى النوم على ظهره،

وقد سقط شعره المستعار وفمه مفتوح على آخره ،
لانه ما من شيء يمكن أن يستبقيه يقظا بعد تناول الخمر
والعشاء الطيب . كما يجب أن يكون وليم مشغولا
بجرحه في حجرته ، وشعرت . بضميرها يؤنبها ، لانها
كانت قد نسيت ، فتحولت عندها الى السلم الكبير
ووضعت يدها على الحاجز . فسمعت صوتا جعلها
تتطلع الى أعلى . وهناك كان يقف روكنجهام مسلطا
بصره عليها من عينين ضيقتين ، جهمتين ، وثمة جرح
كبير يمتد بطول وجهه ، بينما السكين مشهورة في
يساره .

الفصل السابع عشر

وقف هناك وكأنه يقف الى الابد ، ناظرا
ببصره اليها . وهبط السلم ببطء ، دون أن يحول
نظره عنها ، بينما حولت هي ناظرها عنه ، وهي
تتحسس طريقها حول المائدة ، وجلست في مقعدها ،
وثبتت ناظرها عليه . ورات أن ثمة دماء على قميصه . .
وعندئذ ادركت ما حدث . ففي مكان ما بالطابق
الأعلى يرقد رجل مشخنا بالجراح ، بل لعله قد لفظ
انفاسه . وقد يكون أحد رجال لامويت ، أو قد يكون

وليم ولقد كان هناك صراع فى السكون والظلام بينما كانت هى واقعة فى حجرة الجلوس وحدها مستغرقة فى احلامها . وجواهرها فى يديها . كان واقفا الآن عند اسفل درجات السلم ، وما زال ملتزما الصمت التام ، ولكنه استمر يراقبها بعينه الضيقتين الشبيهتين بعيني القط ، ثم القى بنفسه فى المكان الذى كان يجلس فيه هارى عند الطرف الآخر من المائدة ، ووضع السكين على الصفحة المواجهة له .

وعندما تكلم أخيرا ، ادهشها انها تعرفت على صوته ، لأن الرجل الذى كان ينظر اليها لم يكن روكنجهام الذى شاطرته النكات البلهاء فى لندن والذى غضت من شأنه باعتباره مبذرا متلافا للوقت والمال . فقد كان هذا الرجل هادئا ، شريفا ، عدوا لها ، راغبا فى تعذيبها وايلامها .

قال :

– ارى أن جواهرك قد عادت اليك .

فلم تحر جوابا . لم يكن يهمها مدى ما ضمنه .

فقد كان الشيء الوحيد الذى يهمها هو أن تعرف الحطة
التي تدور برأسه ، وأية حركة سيقوم بها .

قال :

— وماذا اعطيت فى مقابل مجوهراتك ؟

فاخذت تضع اليواقيت فى اذنيها ، وهى تراقبه
من فوق ذراعها وبينما هى تفعل ذلك . قالت :

— لقد أصبحنا نأخذ الأمور مأخذا جديا للغاية

يا روكنجهام .. كان يجب أن تسرى عنك نكتة هذا
المساء .

قال :

— لقد كانت مسلية للغاية أن يجبر اثنا عشر

رجلا على الظهور بمظهر غاية فى الغباء بواسطة مثل
هذا العدد القليل . ولكن شيئا واحدا لم يكن يسلينى

ويسرنى — ألا ، وهو أن تنظر دونا سانت كولب الى
قائدهم بالطريقة التى كانت تنظر بها .. طريقة لم تكن
تعنى الا شيئا واحدا .

فسألته وهي تثبت القلادة :

- وعلى هذا ١٩

- وعلى هذا فقد ادركت فى لحظة ما حيرنى منذ وصولى هنا فى الليلة الماضية . فخادمك ذاك يعمل بالطبع لحساب الفرنسى . وصداقتك مع الخادم . . . وكنت تعرفين أنه تابع للقرصان . وتلك الجولات التى كنت تقومين بها . أعنى جولاتك فى الغابة ، وتلك النظرة فى عينيك التى لم ارها من قبل . . . نظرة تحذرنى وتحذر هارى بأن ندعك فى حالك . . . بل تحذر كل رجل . . . الا رجلا واحدا ، وقد رايت ذلك الرجل الليلة .

كان صوته خفيضا الآن ، لا يعدو أن يكون همسا وكان ينظر اليها طول الوقت نظرة الكراهية .

- حسنا . اهذا حق ؟

قالت :

– أجل • انه حق •

وعندئذ ابتسم لأول مرة ، ودفع مقعده الى الورا ، ووضع احدى يديه على طرف المائدة • وقال :

– اعتقد اننى سأقتلك !

كان هناك كوب خمر بالقرب من يدها ، وفي لحظة قذفت به فى ملء وجهه • فاعمته الضربة نصف لحظة ، بينما تناثر الكوب على ارضية القاعة • عندئذ حاول الامساك بها عبر المائدة ، ولكنها انزلت الى احد الجوانب ، ورفعت واحدا من الكراسى الثقيلة ودفعت به بين الفضيات والفاكهة على المائدة • فصدمت ساق الكرسي كتفه • وتدافعت انفاسه مع ما سببه له من ألم • وهنا رفع سكينه ، وأبقاها مشهرة لمدة لحظة ، وقذف بها من جهته الى عنقها مباشرة • فاصطدمت بالياقوتة الموجودة بجيدها ، وشقتها نصفين ، وشعرت بالصلب البارد ينزلق عنها ، متعلقا بطيات ثوبها •

فحاولت الامساك بها ، وقد اضعفها الالم والخوف ،
ولكن قبل أن تستطيع الامساك بها كان راقدا فوقها ،
واحدى يديه تلوى معصمها خلف ظهرها ، والاخرى
على فمها لايقف أنفاسها . وشعرت بنفسها وهى
تسقط بجوار المائدة . . . بينما الاكواب والصحاف
تتحطم على ارضية القاعة ، وفى مكان ما كانت السكين
التي يحاول العثور عليها .

نفرزت اسنانها فى يده ، ودفعت يدها اليسرى
فى دينيه . فتخلت عن معصمها الذى ثناه خلف ظهرها ،
لكى يطبق بكلتا يديه على عنقها . وشعرت بضغط ابهاميه
يمنعانها من التنفس . وجاهدت يدها اليسرى للعثور على
السكين ، وفجأة قبضت اصابعها عليها . قدفعتا الى
أعلى تحت ذراعه . وشعرت بها تغوص فيه بسهولة
مدهشة ، وشعرت بالدم يغطى يدها .

وتخلت اصابعه عن عنقها ، وسقط جانبا على
المائدة بين الاكواب . فدفعت به بعيدا عنها ووقفت
ثانية على قدميها ، وركبتها ترتعشان . واذا به الآن

يجر نفسه بعيدا عن المائدة ، وتركزت عليها عيناه
اللتان يلوح فيهما الموت ، كانت احدى يديه تضغط
الجرح تحت ذراعه بينما كان يمد يده الاخرى للامساك
بوعاء خمر فضي كبير كان لا يزال على المائدة . وبه كان
يستطيع أن يصرعها ارضا ، ولكنه فيما هو يستدير
جهتها ، لفظت الشمعة الاخيرة انفاسها ، وصارا في
الظلام .

وتحسست طرف المائدة بيديها وتحركت حولها ،
بعيدا عن متناوله . وسمعته وهو يحاول العثور عليها
في القاعة التي يسودها الظلام ، ثم وهو يسقط على
كرسي اعترض طريقه . فشرعت تتحرك في اتجاه
السلم . وامكنها أن ترى ضوءا واهنا ينساب من
النافذة عند قمة السلم ، وبدا السلم نفسه ، والحاجز
فتسلقت الدرجات . ويمكن ما بأعلى السلم كانت تنبعث
صرخات وصيحات ، وصوت انسان يدق أحد الابواب
بعنف . ولكن كل هذا كان اضطرابا لا انتظام له
ولا شكل ، كان حلما لا صلة له بالمعركة التي كانت
تجرى هنا على انفراد . . وبينما كانت تنظر الى الخلف

من وراء كتفها وتحاول التقاط انفاسها ، رأت روكنجهام
عند أسفل درجات السلم . لم يكن منتصب القامة كما
كان من قبل ، ولكنه كان يزحف صاعدا في اتجاهها على
يديه وركبتيه مثل الكلب . وبلغت قمة الدرجات ،
وكانت الصيحات والصرخات أشد ارتفاعا الآن . وكان
من بينها صوت جودولفين ، وهاري ، وتصاعد من
حجرة الاطفال صراخ طفل أوقظ من نومه . وهنا انتابها
الآلم أخيرا بدلا من الخوف . فقد كانت عندئذ عاقدة
العزم ، هادئة الاعصاب ، ولا يشوب هدوءها شائبة .
شع الضوء القاتم من النافذة ، حيث كان القمر
يجاهد لكي يظهر من بين السحب . شع بوهن على درع
كان معلقا على الجدار . . كان درع واحد من آل سانت
كولب الذين ماتوا منذ وقت طويل . . فنزعته من
مكانه على الجدار ، كان ثقيلا يعلوه الغبار بفعل
السنين ، وانهارت راحة على ركبتيها تحت وطأة ثقله .
وكان روكنجهام لا يزال يتجه نحوها . واستطاعت أن
تري ظهره ، وهو يستند الى الحاجز ، فيما هو يحاول
التقاط انفاسه ، وامكنها أن تسمع احتكاك يديه بدرجات

السلم وصوت تنفسه السريع . وعندما وصل الى جانب درجات السلم ووقف لحظة ، وهو يدير رأسه ، باحثا عنها فى الظلام . فجمعت قواها . والقت الدرع صوبه . دافعة اياه بشدة فى وجهه . واصطدم به طارحا اياه ارضا . وسقط ، وهو يتدحرج على الدرجات درجة درجة ، منسحقا وقد علاه الدرع حتى استقر على الأرضية الحجرية باسفل الدرجات . وسمعت جميس يصيح باكيا مرة أخرى .



كانت الآن فى الفراش ، وكان الوقت نهارا . . . وكان هارى راكعا بجوار فراشها ، وهو يلمس شعرها بيديه الكبيرتين المرتبكتين . كان ينظر فى وجهها ، وعيناه الزرقاوان يلوح فيهما تعب وضيق . ويصرخ
مثل الطفل :

— هل انت بخير يا دونا . هل أنت أحسن حالا ؟ . . هل أنت بخير ؟!

فنظرت اليه دون أن تفهم شيئاً ، وثمة ألم ثقيل
خلف عينيها ، وفكرت فى مدى السخف فى أن يركع
هذا الرجل ويصيح قائلاً :

ـ لقد مات روك . وجدناه ميتاً هناك ، على
الأرض ، ورقبته المسكينة مكسورة روك ، خير من عرفت
من الاصدقاء .

وانهرت الدموع على وجهه ، واستمرت تنظر
اليه ، دون أن تفهم شيئاً .

وقال هارى :

ـ لقد أنقذ حياتك كما تعرفين . لا بد أنه قاتل
ذلك الشيطان بمفرده هناك فى الظلام ، بينما جريت
أنت صاعدة الى هنا لتحذرينا . يا فتاتى الجميلة
المسكينة !

لم تعد تستمع اليه . وجلست فى فراشها .
تتطلع الى ضوء النهار وهو يندفع من النافذة .
وقالت :

– كم الوقت .. كم من الوقت مضى على شروق الشمس ؟

فقال بغياء :

– الشمس ؟ الوقت يقرب من الظهيرة ، فيما اعتقد . وفيهم يهم هذا ؟ انك سترتاحين في فراشك اليس كذلك ؟ .. يجب عليك أن تستريحى بعد كل الذى عانتيه الليلة الماضية !

فوضعت يديها على عينيها وحاولت أن تفكر .
كان الوقت منتصف النهار . والسفينة قد أبحرت ..
لم يستطع أن ينتظرها بعد أن اشرقت الشمس . لقد كانت نائمة هنا في فراشها ، اذ جاء القارب الى الأرض الرملية فوجدها خاوية .. وقال هارى :

– حاول أن ترتاحى ثانية ، يا عزيزتى . حاولى أن تنسى الليلة المخيفة . لن احتسى الخمر بعد الآن أبدا . اقسم بذلك . انها غلطتى . كان ينبغى أن أوقف كل شئ . ولكنك ستحققين انتقامك ، اعدك بذلك . ولتعلمى اننا قد قبضنا عليه .

قالت ببطء :

— ماذا تعنى ؟ عم تتحدث ؟

قال :

**— لماذا ؟ ، الفرنسى بالطبع . الشيطان الذى قتل
روك ، وكان يمكن أن يقتلك ، أيضا . لقد ابهرت
السفينة وبقية رجاله ، ولكننا أمسكنا به . . . بالقائد ،
بالقرصان اللعين !!**

**فاستمرت تنظر اليه دون فهم ، غير قادرة على
التفكير ، كما لو كانت قد أصيبت بصدمة هائلة .**

الفصل الثامن عشر

ومر يومان ..

كانت خلالهما ترتدى ملابسها ، وتاكل ، وتخرج
الى الحديقة . ولكن كان الامر كانه لم تكن هي التي
تتحرك بل امرأة أخرى .

ومكث هارى معها طول الوقت ، وديعا متلهفها
لادخال السرور الى قلبها . واستمر يسألها عما اذا
كانت تحتاج شيئا .. واحضر لها معطفا ، وقطعة قماش

لتدفئة ركبتيها . . وعندما كانت تهز رأسها راغبة لو
يتركها لحالها ، بحيث تستطيع أن تجلس ولا تنظر الى
شيء ، كان يشرع ثانية فى اخبارها عن مدى حبه ،
وعن عزمه على الاقلاع عن معاقرة الخمر الى الابد . .
وقال :

- ساقلع عن لعب الورق ، وسابيع البيت الموجود
فى لندن ، وستذهب ونعيش فى هامبشير . . يا دونا . .
بالقرب من بيتك القديم ، حيث تقابلنا لأول مرة .
وسأحيا حياة رجل ريفى مهذب ، معك ومع الاطفال ،
وساعلم جيمس الصغير ركوب الجياد . فكيف يروك
ذلك ؟

الا انهالم تجبه بشيء ، بل استمرت تنظر امامها
مباشرة . فاستطرد قائلا :

- أجل ، سنرحل بعيدا . فان نافرون ليست
بالمكان الذى يلائمك . سنرحل بمجرد أن تنتهى هذه
المشكلة . ولكم اتمنى لو امكننا القبض على ذلك الخادم
أيضا ، وشنقهما معا فى نفس الوقت . يا للخطر الذى
كنت عرضة له حين أوليت ذلك الرجل ثقتك !

وشرع ينفخ انفه ، ويهز رأسه . ما هذا الذى
يقوله هارى عن وليم ؟ وفجأة . . اشرق ذهنها الذى
تكتنفه الظلمة نابضا بالحياة مرة أخرى . وخفق قلبها
بصوت عال . . ودبت الحياة فى البيت والاشجار ،
وفى شخص هارى الجالس بجوارها فقد أخذ شكلا
وأصبح حقيقيا . كان يتحدث ، وعرفت أن كل كلمة
قالها قد تكون ذات أهمية . فيجب الا يفوتها شئ ،
لأن هناك خطط يجب أن تخطط ، وأصبح الوقت
الآن اعظم قيمة من الذهب .

كان يقول :

— لا شك أن روك المسكين كان عصيا جدا من
البداية على الخادم . كانت هناك علامات على الصراع فى
حجرتة ، كما تعرفين وآثار دماء عبر الدهليز ، ثم
انقطعت الدماء فجأة وفقدنا أثر الشخص . على أية
حال لا شك أنه قد هرب ، وربما انضم الى الشياطين
الآخرين على السفينة ، وان كنت لا اظن ذلك ممكنا .

وتكلمت « دونا » أخيرا ، وبدأ صوتها فى أذنيها

غريبا ، لأن كلماتها كانت منتقاة بحرص ، أشبه بدرس
تم حفظه عن ظهر قلب ..

وقالت :

— كيف تم القبض عليه ؟

قال « هارى »

— تقصدين الفرنسى . حسنا ، لقد تعشنا انك
تقدرين على اخبارنا بشيء بخصوصه .. عن الجزء
الأول ، لأنك كنت معه فى حجرة الجلوس . اليس
كذلك ؟

قالت :

— لقد أعطانى قرطى ثم مضى لحال سبيله .

قال « هارى » :

— أوه . حسنا ، اذا كان ذلك كل ما فى الامر .
لكن لابد أنه عاد ثانية ، وحاول أن يتبعك الى الطابق
الأعلى . ولعلك لا تذكرين أنك قد أغمى عليك هناك ،

فى الدهليز بالقرب من حجرتك • على أية حال • لا بد
أن « روك » كان هناك حينذاك • ولا بد أنه قد أدرك
ما كان يفعله الشيطان فهاجمه فى الحال • وفى أثناء
القتال الذى قام به من أجل سلامتك ، يا « دونا » ،
ويجب عليك أن تتذكرى ذلك دائما ، أضاع ذلك
الصديق العزيز المخلص حياته •• !

انتظرت « دونا » دقيقة وقالت وهى تنظر بعيدا
عنه عبر الأعشاب :

– ثم ماذا ؟

– والباقى ندين به الى « روك » أيضا • فقد
كانت الخطة خطته منذ البداية • وقد اقترحها على
« أويستيك » و « جورج » و « جودولفين » عندما
قابلناهما فى هيلستون • قال ضعوا رجالا على الشاطئ
وأعدوا القوارب على أهبة الاستعداد • • ثم اذا كانت
هناك سفينة تختفى فى أعلى النهر ، فسنكون قادرين
على أسرها عندما تنحدر مع التيار أثناء الليل • ولكننا
بدلا من أسر السفينة ، قبضنا على القائد نفسه •

وضحك ...

وسمعت « دونا » نفسها تقول في صوت بارد
واضح النبرات :

— هل أصيب بجروح ؟ لست أفهم !؟

— مجروح ؟ لا بحق السماء . سيشنقونه دون أن
يكون به خدش ، وسيعرف معنى الألم . ان عمل هذا
الشیطان هنا قد عوقه ، كما ترين ، وأولئك الثلاثة
الآخرون ، وذهبوا في اتجاه مكان أسفل هلقورد
ليلحقوا بالسفينة اذ هي تهبط النهر . ويجب أن يكون
قد أخبر بقية رجاله أن يخرجوا بالسفينة الى عرض
النهر عندما كان هو يمارس هجمته في هذا البيت .
وعندما وصل « أويستيك » والآخرون الى الشاطئ ،
كانت السفينة هناك في عرض النهر ، وعام الرجال
صوبها ، جميعهم عدا قائدهم . كان واقفا على الرمال ،
هادئا متمالكا نفسه ، يقاتل اثنين من رجالنا معا ، بينما
رجالهم يبحرون بعيدا . واستمر يهتف لهم محييا من
فوق كتفه . . في لغة لا يستطيع أحد أن يفهمها . .

وهم يعومون فى اتجاه السفينة . كانت القوارب جاهزة ،
كما رتبنا الأمور ، ولكنهم كانوا قد وصلوا متأخرين
فلم يستطيعوا أن يمسكوا بالرجال أو بالسفينة . وقد
أبحرت الى عرض البحر مع المد القوى وساعدتها ريح
طيبة ، وكان الفرنسى يراقبها وهى تذهب . وقد كان
يضحك عليه اللعنة كما قال « أويستيك » .

ورأت « دونا » الصورة فى ذهنها . رأت النهر
حيث يتسع ويلتقى بالبحر . واستطاعت أن تسمع
الريح فى الجبال . كان الهروب مثل كل هروب ثم
من قبل ، فيما عدا أن « لامويت » قد أبحرت هذه المرة
بدون قائدها . كان « بيير بلان » والآخرون على سطح
السفينة ، ولكنهم تركوا قبطانهم على الشاطئ . . . لأنه
قال لهم أن يفعلوا ذلك .

لقد خمنت ماذا كانت كلماته ، فيما هو واقف
هناك ، يقاتل أعداءه ، بينما رجاله يعومون متجهين الى
السفينة . . . لقد أنقذ رجاله ، وأنقذ السفينة ، وحتى
الآن ، وفى أى سجن كان ؟ فان ذهنه الهادى يعمل

ويخطط طريقا جديدا للهرب . وتبينت الآن ، انها لم
تعد خائفة ، لان الطريقة التي أسروه بها قتلت كل
خوف في قلبها .

سالت وهي تنهض وتلقى على الأرض بالغطاء الذى
وضعه « هارى » حول كتفها :

– واين أخذه ؟

فاخبرها :

– أخذه « جورج جودولفين » وسجنه فى برجه
ووفر رجالنا على أنفسهم المتاعب وسنشنقه يوم السبت!
ودخلا الى البيت ، وكانت الآن واقفة حيث قال
لها الفرنسى يوما الى اللقاء . وقالت :

– وهل سيكون هذا قانونيا ؟؟ !

قال « هارى » :

– لا ، ربما لم يكن كذلك . ولكنى لا أعتقد أنه
ستكون هناك أية مشكلات بخصوص ذلك !

وفكرت فى نفسها .. وتذكرت الكلمات التى
نطق بها : أشد الأفعال خطورة أكثرها نجاحا .. كانت
تلك نصيحة يجب أن تكررهما غالبا فى حياتها الآن ..

قال « هارى » بقلق :

— انك على ما يرام ، الست كذلك ؟ وانما هى
الصدمة التى انتابتك لموت « روك » ، فيما اعتقد ،
جعلتك بمثل هذه الغرابة . اليس الأمر كذلك ؟

قالت :

— ربما .. لا أعرف .. لا يهم .. ولكننى بخير
.. لا حاجة بك للقلق .

قال :

— سنذهب الى هامبشاير ، اذن .. ما رأيك ؟

فاجابته :

— أجل ، أجل ، سنذهب الى هامبشاير .

•• جلست

يجب بالطبع أن ترى « جودولفين » ، وتحدث إليه وتقنعه بأن ترى السجين على حدة ، وسيكون هذا سهلاً ، لأن « جودولفين » غيبى • ويمكنها أن تجعله يشعر بالأهمية • وعندئذ ، فيما هي تتحدث إلى الفرئسى ، تستطيع أن تعطيه فى الخفاء سلاحاً - سكيناً أو مسدساً إذا أمكنها أن تحصل عليه • وستكون خطة الهروب عندئذ متوقفة عليه وحده •• !

وتناولت العشاء مع « هارى » فى هدوء ، وسرعان ما صعدت « دونا » إلى حجرتها ، مدعية بأنها متعبة ، وكان « هارى » من رقة الاحساس بحيث لم يقل شيئاً وتركها تذهب بمفردها •

وخلعت ملابسها واستلقت فى سريرها ، وعقلها مشغول بزيارة « جودولفين » وكيفية الترتيب لهذه الزيارة • وسمعت نقرا خفيفاً على الباب • ورأت « برو » أمامها واقفة هناك فى ملابسها الليلية وثمة شمعة بيدها •

وتبينت « دونا » أن عينيها محمرتان ومتفختان من
البكاء .

قالت « دونا » وهي تنهض جالسة في الحال .

— ماذا في الأمر . أهو « جيمس » ؟

فهمست « برو » قائلة :

— لا يا سيدتي . فالأطفال نائمون . وانما الأمر

فحسب هو أن لدى شيء أريد أن أصارحك به . . . !

وبدأت تبكي ثانية ، وهي تدعك عينيها بيدها .

قالت « دونا » :

— ادخلي واغلقى الباب . . وما خطبك ؟ لماذا

تبكين ؟ هل كسرت شيئاً ؟ لن أعنفك بسببه .

فاستمرت الفتاة في النشيج ، وهمست :

— ان الأمر يتعلق « بوليم » يا سيدتي . لقد

أتيت أمرا غاية في السوء .

قالت « دونا » بركة :

— لا تخافى • لن أغضب • ما خطب « وليم » ؟
يمكنك أن تخبرينى ، كما تعرفين ، وسأفهم •

قالت « برو » :

— لقد كان دائما شديدا العطف على ، وبالغ
الحرص على وعلى الأطفال ، عندما كنت مريضة
يا سيدتى • وما خطر لى أبدا أنه على أدنى صلة
بالغرباء ، أو مع هؤلاء القراصنة المرعبين • قلم يكن
جلفا فى سلوكه معى •

قالت « دونا » :

— لا • لا أظن أنه كان •

— انى أعرف أنه كان من الخطأ الشديد أن
لا أخبر السير « هارى » والسادة الآخرين تلك الليلة ،
عندما حدثت كل تلك الضجة العظيمة واندفعوا خارجين
من حجراتهم ، وقتل لورد « روكنجهام » المسكين ،
يا سيدتى ، ولكنى لم أستطع فقط يا سيدتى أن أرفعه •

كان بالغ الوهن بسبب ما فقده من دم ، وبالحـ
الشحوب ، اننى لم أستطع أن افعل هذا فحسب . واذا
اكتشفوا الأمر ، فاننى سأضرب وسيرسلوننى الى
السجن . . . لكنه قال اننى يجب أن أخبرك ، مهما كان
الأمر .

قالت « دونا » بسرعة :

— ماذا تحاولين أن تخبرينى يا « برو » ؟

— لا شيء . عدا انى أخفيت « وليم » فى حجرة
الأطفال تلك الليلة ، يا سيدتى ، عندما وجدته راقدا
فى الدهليز ، وثمة جرح بذراعه وجرح آخر فى مؤخرة
رأسه . وأخبرنى أن السير « هارى » والرجال الآخريـ
ن سيقتلونه اذا وجدوه . وقال أن القرصان الفرنسى كان
مسيده ، وأنه قد كان هناك قتال فى « نافرون » تلك
الليلة . وعلى هذا ، فانى بدلا من تسليمه ، يا سيدتى ،
غسلت جراحه وضمدتها ، وأعددت له فراشا على الأرض
بجوار الأطفال . وبعد الافطار عندما انصرف جميع
السادة يبحثون عنه وعن غيره من القراصنة ، تركته

يذهب ، يا سيدتى ، من الباب الجانبى ، وما من أحد
يعرف بالأمر الا أنت وأنا .

ونفخت أنفها وتهيات لتنشج ثانية ، ولكن «دونا»
ابتسمت لها ووضعت يدا على كتفها ، وقالت :

- لا تخافى يا « برو » . انك فتاة مخلصة اذ
أخبرتنى هذا ، وسابقية طى الكتمان . اننى مغرمة
« بوليم » أيضا ، وسأحزن كثيرا اذا ألم به أى مكروه .
ولكنى أريدك أن تخبرينى شيئا . أين « وليم » الآن ؟

- لقد قال شيئا بخصوص « كوفراك » عندما
أفاق ، يا سيدتى ، واستفسر منى عن مكان وجودك ،
فأخبرته انك فى الفراش ، مريضة بسبب الصدمة ،
لأن اللورد « روكنجهام » قد قتل أثناء الليل . وبعد
ذلك بدا أنه استغرق فى التفكير فترة من الوقت ثم
قال ان له أصدقاء فى « جويك » سيمنحونه مأوى
وحماية . وقال انه سيكون هناك ان رغبت أن ترسلى
له كلمة يا سيدتى .

قالت « دونا » :

- فى « جويك » . حسنا ، يا « برو » ، أريدك أن تذهبى للفراش ، وأن تنسى كل هذا ، ولا تقولى عنه شيئا مرة أخرى لأحد . . . حتى ولا أنا نفسى . واستمرى كما كنت من قبل يا « برو » ، واعتنى بالأطفال وامنحهم من الحب قدر ما تستطيعين !

وعلى هذا فقد نامت ، وعقلها أشد سلاما مما كان . . . وعندما أفاقت رأت أن السماء أصبحت زرقاء ثانية ، مثل سماء تلك الأيام الخالية الدافئة عندما كانت تذهب لتصطاد فى الخليج غير عابثة بشيء وقد غمرتها السعادة .

ووضعت خططها بينما كانت ترتدى ملابسها ، فأرسلت بعد الافطار رسالة تطلب من « هارى » أن يأتى إليها . كان قد بدأ يسترد حالته المعنوية المعتادة ، وأدى لها التحية بصوت مرح ، وهو راض عن نفسه تماما . . .

قالت :

– « هارى » ، أريدك أن تفعل شيئاً من أجل !

فوعدها باخلاص :

– اننى من أجلك أفعل أى شىء مهما كان فما هو ؟

قالت :

– أريدك أن تترك « نافرون » اليوم وتأخذ معك

الطفلين و « برو » .

فلاحت على أساريه أمارات الدهشة وخيبة

الامل .. وتساءل :

– ولكن أنت . لماذا لا تأتين معنا ؟

قالت :

– سألحق بكم غدا !

فأخذ يذرع الحجرة ذهاباً وجيئة .. ثم قال :

– كنت آمل أن نسافر جميعا معا ، عندما ينتهى
هذا الأمر ..

واستحثها قائلا :

– من المحتمل أنهم سيشنقون ذلك الرجل غدا .
وكنت أفكر فى الذهاب ورؤية « جودولفين » ، بخصوص
هذا الأمر اليوم . وانه ليروقك رؤيته وهو يشنق ،
أليس كذلك ؟ ويمكننا أن نحدد التاسعة صباحا موعدا
لذلك ، ثم نرحل بعدها جميعا .
قالت :

– هل رأيت مرة انسانا وهو يشنق ؟

– أجل ، وأصرح لك انه ليس بالأمر المثير .
ولكن ما نحن فيه مختلف تماما . فان الرجل ،
يا « دونا » ، قد قتل « روك » المسكين ، وكان يمكنه
أن يقتلك أنت أيضا . اتقصدين القول بان ليست لديك
اية رغبة فى الانتقام ؟

فلم تحر جوابا ، ولم يستطع أن يرى وجهها لأن
ظهرها كان متجها اليه .

قال :

— وسيظن « جورج جودولفين » اننى كنت فى
غاية الوقاحة ، اذا سافرت خلصة على هذا النحو دون
أية كلمة تفسر الأمر .

قالت :

— سأقوم أنا بتقديم التفسير ، فانى أنوى زيارته
بنفس هذا المساء ، بعد أن ترحلوا .

— واذا أخذت العربى للأطفال ، وقدها بنفسى ،
كيف ستسافرين غدا ؟

— أستطيع أن أستأجر عربى خفيفة من هلستون .

— وتقصدين أن تلحقى بنا فى المساء عند
« أوكهامبتم » ؟

ووقف بجوار النافذة ، يتطلع الى الحديقة فى
اسى .. ثم واصل كلامه :

– أوه .. اللعنة يا « دونا » .. انى لا أستطيع
فهمك أبدا ؟

قالت :

– لا ، يا « هارى » ، ولكن ليس هذا بالأمر
المهم كثيرا .

قال :

– بل يهم . لأن ما نحن فيه يجعل الحياة عديمة
الأمل بالنسبة لكل منا .

فتطلعت ناظرة اليه ، قالت :

– أعتقد ذلك حقا ؟

قال :

– أوه .. انى لا أعرف ما أفكر فيه . كل
ما أعرفه هو انى على استعداد لأن أعطى أى شىء فى

العالم مقابل ادخال السعادة الى قلبك ، ولكن الحيرة
الملعونة اننى لا أعرف ماذا أفعل ، وانك مغرمة بقلامة
ظفر من « جيمس » أكثر منى .

ووقفت بجواره لحظة وقالت :

— لعلى عندما أكبر سنا أصير أحكم عقلا . هل
ستفعل الآن ما طلبته منك ؟

قال :

— أجل . أظن هذا . ولكنى ألفت نظرك الى أنه
لا يروق لى ، والى أنى سأتوقف فى أوكهامبتم وانتظرك
.. أو لن تؤخرى رحلتك مهما كانت الأسباب ؟

قالت :

— لا . لا . لن أتاخر .. !

فهبط ليقوم بالترتيبات اللازمة للرحيل . وحوالى
الساعة الثانية ، كان كل شيء جاهزا ، وراقبت « هارى »
والطفلين وهما ينحدران الى الميدان ، وقد بدا عليهما
الانفعال لعلهما بالرحلة . ثم أخبرت أحد الخدم أن
يسرج الجواد الصغير لأنها ستقوم بجولة ...

الفصل التاسع عشر

عندما وصلت « دونا » الى « جويك » توجهت مباشرة الى كوخ صغير يكاد يكون مخفيا داخل الغابات .. وكانت متأكدة من أنه هو المكان الذى تنشده . فهى عندما مرت هنا مرة من قبل ، رأت امرأة شابة وجميلة عند الباب .. وانحنى لها « وليم » الذى كان يسوق العربى ، فأحمر وجه الفتاة ..

ونقرت على الباب بخفة . فلم يرد احد . فنادت

قائلة :

ـ لا تخافوا • اننى السيدة سانت كولمب من
« نافرون » !

وفى دقيقة أزيحت القضبان ، وانفتح الباب ، وبدأ
« وليم » بنفسه ، والمرأة الشابة تنظر من خلف كتفه •

قال وقد التوى فمه الشبيه بعروة الزرار :

ـ سيدتى !

وراودها الخوف لحظة من أن ينفجر باكيا
ويصيح • ولكنه تمالك نفسه ، وأبقى الباب مفتوحا
على آخره ، وقال للفتاة :

ـ اصعدى الى فوق يا « جريس » ، فان سيدتى
تريد أن تتحدث الى بمفردى •

فأطاعته الفتاة ، وذهبت « دونا » مع « وليم »
الى المطبخ الصغير ، وجلست بالقرب من المدفأة وتطلعت
اليه •

كان ذراعه لا يزال مربوطا ، وثمة قطعة من قماش

حول رأسه ، ولكنه كان « وليم » نفسه ، الواقف أمامها
كما لو كان ينتظر أوامرها بخصوص وجبة من الوجبات .

قالت :

– لقد أبلغتني « برو » رسالتك يا « وليم » .

وابتسمت اليه ابتسامة تعاطف وتشجيع لما رآته
واقفا أمامها متصليا . . جامد الملامح . قال بوداعة :

– ماذا أستطيع أن أقول يا سيدتي ؟ كان يجب
أن أموت من أجلك في تلك الليلة ، ولكن بدلا من ذلك
رقدت مثل طفل مريض على أرضية حجرة الأطفال
والخطر يحدق بك !

قالت :

– ما كان بمقدورك أن تفعل غير ذلك . كنت
ضعيفا واهن القوى بسبب ما نزف منك من دماء ، وكان
سجيتك شديد السرعة . بالغ المهارة . ولكني ما جئت
لأحدثك عن ذلك ، يا « وليم » ، فاستمع الى ، لقد غادر
السير « هارى » و « برو » والطفلان « نافرون » هذا

المساء • والأمر الوحيد الذى يهمنا الآن هو أن ننقذ
رئيسك • أتعرف • ماذا • • حدث ؟!

— انى أعرف يا سيدتى ان السفينة تمكنت من
الهروب مع كل الرجال سالمين على ظهرها ، ولكن سيدى
سجين فى حى لورد « جودولفين » •

— وليس هناك وقت كثير يا « ولين » ، لأن
سعادته والآخرين يريدون انتزاع حياته قبل ان يحضر
الجنود من بريستول • ربما كانت أمامنا بضع ساعات
فحسب ، وعلى هذا فاننا يجب أن نعمل الليلة !

وأظهرت له المسدس الذى أخفته فى ملابس
ركوبها ، وسكينا أيضا • • وقالت :

— هذا المسدس محشو • وعندما أتركك الآن
سأذهب الى لورد « جودولفين » ، وسأدخل الى البرج
بطريقة من الطرق • ولن يكون الأمر صعبا ، لأن فخامته
أبله وغبى !

فسالها :

— ثم ماذا يا سيدتى • • ؟

- ثم سأتبين ما اذا كان سيدك قد دبر خطة ،
ونتصرف بموجبها . فهو يدرك مدى أهمية الوقت ،
وربما رغب منا أن نعد جيادا تنتظر في ساعة معينة .
- لن يكون هذا مستحيلا يا سيدتى . هناك
وسائل للحصول على الجياد .

- حسنا ، لقد تم فهم الحركة الأولى من اللعبة ،
سأعود الى هنا ، بعد زيارتى « لجودولفين » ، وأخبرك
بما تم ترتيبه .
- أجل ، يا سيدتى .

وفتح لها الباب ، ووقفت لحظة تبتسم له ، قبل
أن تنصرف ، وقالت :

- نحن لا ننوى أن نفشل .

وامتطت جوادها بسرعة ، وسرعان ما وصلت الى
بوابات حديقة « جودولفين » ، وأمكنها أن ترى عن بعد
شكل بيته الرمادى والبرج القوى الذى يشكل جزءا
منه . . . كانت هناك فتحة ضيقة جدا فى منتصف جدار

البرج ، وفيما هي في منتصف الطريق مارة من تحتها
خفق قلبها خفقانا شديدا ، بانفعال مفاجيء ، يجب أن
يكون ذلك سجنه ، ولعله قد سمع صوت جوادها ،
فاذا تسلق حتى الفتحة ، فسوف يكون في مكانه أن
يراهها ..

واسرع الخادم ليتناول منها جوادها ، وهو ينظر
اليها مندهشا . وفكرت في نفسها أنه يتعجب عما دفع
السيدة سانت كولب « نافرون » للمجيء في حرارة
المساء ممطية جوادا ريفيا شرسا ، وبدون صحبة
زوجها أو أحد الخدم .

وسالت عما اذا كان فخامته يستطيع استقبالها ،
وبينما كانت تنتظر في القاعة الكبيرة ، تطلعت الى
الحديقة من خلال النافذة الطويلة ، ورات شجرة أكثر
طولا من بقية الأشجار ، ذات حبل يشكل حازا حولها .
وكان هناك رجل ، على أحد الأغصان الكبيرة ، يعمل
بالمنشار . وينادى على مجموعة قليلة من الرجال
تحتة .

استدارت مبتعدة ، شاعرة فجأة بالبرودة ، بمرضى خفيف ، ثم سمعت وقع خطوات قادمة عبر القاعة .
واقبل اللورد « جودولفين » نحوها ، وقد علا وجهه شيء من الاحمرار . قال وهو يقبل يدها :

— ارجو أن تتقبلي أشد اعتذاراتي تواضعا . لم يكن واجبا أن أدعك تنتظرين ، ولكن الحقيقة . . . أننا جميعا قلقين . . . إذ إن زوجتي — أقصد أن أقول ، أننا نتوقع طفلا ، وأنها في انتظار الطبيب !!

قالت « دونا » :

— عزيزي لورد « جودولفين » ، يجب أن تفتفر لي . لو كنت قد عرفت لما كنت قد أزعجتك . ولكن لدى رسالة من « هاري » فقد حدث أمر في لندن استدعاه على جناح السرعة . وقد رحل هذا المساء مع الأطفال ، و . . .

قال :

— « هاري » رحل الى لندن ؟ ولكن لقد رتبنا الأمور كلها بحيث يتعين عليه الحضور غدا .

قالت :

— انه يلتبس غفرانك بكل تواضع • ولكن
الأمر كان عاجلا في الحقيقة • وأعتقد انه يتعلق بالملك
نفسه ..

— أوه .. بالطبع .. في هذه الحالة ، أنا أقدر
الظروف ، ولكنه أمر مؤسف .. مؤسف للغاية ..
فالمناسبة غير عادية .. كما أن الظروف قد شامت ، أن
يكون من المحتمل حدوث سبب آخر للابتهاج في نفس
الوقت •

وسعل ، وقد بدا عليه الرضا الزائد عن ذاته •
وعندئذ تنامي الى مسامعها وقع عجلات عربية ، فتطلع
في اتجاه الباب • وقال في عجلة من أمره :

— يجب أن يكون هذا هو الطبيب ، لا شك أنك
ستلتصين لي العذر لمدة دقيقة ..

فابتسمت قائلة :

— بالطبع .. يا لورد « جودولفين » !

وفكرت فى نفسها بأنه مفعم بالقلق بحيث أننا
لو أمسكنا بشعره المستعار ثانية لما لاحظ الأمر .

واختفت الأصوات ووقع الأقدام وهى تصعد السلم
العريض ، وفيما « دونا » تنظر من النافذة ، رأت أن
لا وجود للحراس خارج البرج أو فى الميدان ، فيجب
اذن أن يكونوا داخل البرج نفسه . .

وعاد « جودولفين » بعد خمس دقائق ، وقد
ازداد حرارة وقلقا عن ذى قبل . وقال :

– الطبيب معها الآن ، ولكن يبدو أنه ليس من
المحتمل حدوث شيء قبل ساعة متأخرة من هذا المساء . .
شيء غير عادى فيما يبدو – لم أكن أعرف – كنت أعتقد
ان ذلك يمكن أن يحدث فى أية لحظة .

قالت :

– انى أتمنى ، يا عزيزى لورد « جودولفين » ،
لو أمكننى أن أبعد ذهنك عما يشغله من هموم . انى
واثقة ان زوجتك فى أمان من كل خطر . هل هذا
سجن الفرنسى ؟

- أجل ، وهو يقضى وقته ، كما يخبرنى الحراس ،
يرسم طيوراً على قصاصات من الورق • الرجل مجنون
بالطبع •

- بالطبع ••

- التهنئات تصلنى من جميع جهات الحى •
واعتقد أنى أستحقها • فانه أنا ، كما تعرفين ، الذى
أخذت سيف الرجل •

- يا له من عمل شجاع صدر عنك !

- صحيح انه قد وضع سيفه بين يدى ، ولكنه
قد أعطاه لى أنا •

- سأجعل من ذلك قصة عظيمة فى البلاط ،
يا لورد « جودولفين » • وسيسر الملك عندما يعلم كيف
عالجت الأمر كله • لقد كنت القائد منذ البداية •

- انه لعطف شديد منك أن تقولى ذلك !

- أوه • لا • سـيـتـفـق « هارى » معى ، انى

أعرف ذلك • واني لأتمنى لو كان معي شيء أريه للملك شيء يتعلق بالفرنسي • أظن أنه ما دام يستطيع أن يرسم الصور ، سيعطيني واحدة من رسومه ؟!

– بالطبع انها منثورة في كل مكان من منضدته •

قالت « دونا » :

– لقد نسيت الكثير ، شكرا لله ، من تلك الليلة المخيفة ، بحيث لا أستطيع أن أتذكر الآن ما هو منظره ، فيما عدا انه ضخم بصورة هائلة وأسود ومتوحش ، وقبيح الوجه بصورة مخيفة •

– انك لست على صواب تماما يا سيادة سانت كولب • انه ليس أكثر مني ضخامة • وهو مثل كل الفرنسيين ذو وجه مخادع أكثر منه قبيح الشكل •

– كم هو من المؤسف أن لا أستطيع رؤيته ، فأقدم للملك وصفا دقيقا عنه •

قال لورد « جودولفين » :

– أظن أني أستطيع السماح لك بالقاء نظرة على

الرجل فى سجنه • ولكنى اعتقد أنه بعد الحوادث المخيفة
لتلك الليلة ...

— ان اليوم ، يا لورد « جودولفين » ، مختلف
تماما عن تلك الليلة • فهناك أنت لتحمينى ، وليس
لدى الفرنسى سلاح • فانى أود أن أكون قادرة على أن
أصف للملك بالضبط القرصان الخطير الذى أمسك به
أشد نبلائه اخلاصا وولاء !!

وذهبا معا الى البرج ، وعند مدخل حجرى ضيق •
كان هناك رجلان يقفان مسلحين بالبنادق ، وآخر
جالسا الى المنضدة • وقال « جودولفين » :

— لقد وعدت أن تلقى ليدى سانت كولب على
السجين نظرة !

فضحك الرجل الجالس الى المنضدة وقال :

— انه لن يكون لائقا لتراه سيده غدا فى مثل هذا
الوقت •

فضحك « جودولفين » بصوت مرتفع وقال :

- لا . وهذا هو السبب الذى جاءت السيدة
سانت كولب من أجله اليوم .

وقادهما الحارس الى سلم حجرى ضيق ، وقد
تناول مفتاحا من سلسلته . وفكرت « دونا » أن ليس
هناك باب آخر ، ولا سلالم أخرى ، والرجال الموجودون
بالأسفل هناك على أهبة الاستعداد دائما ..

واستدار المفتاح فى القفل ، وبدأ قلبها يخفق
ثانية . وفتح الحارس الباب ، فأخذت خطواتها الى
الداخل ، و « جودولفين » خلفها . وانصرف الحارس ،
وقد أغلق الباب ثانية . كان جالسا الى منضدة ..
تماما مثلما رآته لأول مرة ، وكان كما كان حينذاك
ملقيا كل اهتمامه الى ما يفعله . فلا يعنيه شيء آخر ،
بحيث أن « جودولفين » قد استاء وقال بحدة :

- قف ، ألا تستطيع أن تقف عندما أزورك .. ؟!

وعرفت « دونا » أن الفرنسى لا يتظاهر . لقد
كان بالفعل مهتما بعمله بحيث أنه لم يلحظ أن خطوات

الأقدام لم تكن خطوات أقدام الحارس . ودفع الرسم جانبا ..

كان الرسم يعبر عن طائر بحري ، يطير عبر مصب نهر متجها صوب البحر المفتوح - وعندئذ رآها لأول مرة ، فنهض واقفا دون أن يبدى أية علامة تدل على أنه تعرف عليها .. وانحنى ، دون أن يقول شيئا .

وقال « جودولفين » بجفاء :

- هذه هي السيدة سانت كولب . وأنه ليسوءها انها لا تستطيع رؤيتك مشنوقا غدا ، وهي ترغب في أن تأخذ أحد رسوماتك معها الى لندن ، بحيث يستطيع الملك أن يرى شيئا يتصل بالقرصان الشرير الذي ستقص عليه قصته ..

قال السجين :

- أهلا وسهلا بالسيدة سانت كولب ! .. لم يكن لدى شيء آخر أفعله خلال الأيام القليلة الماضية ،

وعلى هذا فانه يمكننى ان اقدم لها الكثير من الرسوم
لتختار منها ما تشاء .

وبدأت « دونا » تنظر الى الرسوم على المنضدة .

وقالت :

— لقد رأيت هذا الطائر من قبل . ولكنى
لا أعتقد أنك رسمت كل ما له من ريش .

فاجاب :

— لقد أسقط هذا الطائر البحرى الغريب واحدة
من ريشه أثناء طيرانه . ولكن اذا كنت تعرفين شيئا عن
هذا النوع من طيور البحر فانك ستذكرين ان أمثاله
من الطيور نادرا ما يبعد فى البحر . فهذا الطائر مثلا ،
يحتمل أن يكون على بعد عشرة أميال من الساحل فى
هذه اللحظة .

قالت « دونا » :

— لا شك . وعلى هذا فانه سيعود الليلة الى
الشاطئ ، باحثا عن الريشة التى فقدما .

قال « جودولفين » :

— انك لا تعرفين الكثير عن الطيور يا سيدة
كولب . فانا نفسى لم أسمع عن طائر بحرى أو أى
طائر آخر يلتقط الريش .

قالت « دونا » وهى تتحدث بسرعة وتبتسم الى
« جودولفين » :

— كان عندى وسادة مليئة بالريش عندما كنت
طفلة . . وأذكر أن الريش قد أصبح متفككا بعد فترة
من الوقت وسقط فى الحديقة . وكانت النافذة بالطبع
كبيرة ، وليست مثل الفتحة الضيقة التى تنير هذه
الحجرة . ولكنى لم أختَر الرسم . هو ذا طائر ضخيم
ذو أجنحة سوداء . ولعل ذلك سيروق للملك . يا الهى ،
أيمكننى أن أسمع وقع العجلات بالخارج ؟ اذا كان
الامر كذلك . . فيجب أن يعنى هذا أن الطبيب
ينصرف . .

فذهب « جودولفين » مسرعا الى الباب ونقر عليه
بشدة . وصاح :

– افتح رتاج الباب فى الحال !

فاطلق الحارس جوابا ، وأمكنهما أن يسبعا وقع خطواته المصرة وهو يصعد السلم . وفى لحظة كانت « دونا » قد أخرجت المسدس والسكين من رداء ركوبها ووضعتهما على المنضدة ، وغطاهما السجين بكمية من الرسوم . . . وفتح الحارس رتاج الباب ، واستدار « جودولفين » ونظر الى « دونا » . وقال :

– حسنا يا سيدة سانت كولمب . هل اخترت رسومك ؟

فحركت «دونا» الرسوم ، وذوت ما بين حاجبيها ، وقالت :

– انه لأمر صعب للغاية . لا أستطيع أن اقرر . لا تنتظرنى يا سيدى . يجب أن تعرف الآن أن المرأة لا تستطيع أن تقرر . سأتبعك فى خلال دقيقة أو دقيقتين .

قال « جودولفين » :

– انه من الضروري بالنسبة لى أن أرى الطبيب .
وعلى هذا فانى أرجو أن تعذرينى . . !

وأضاف موجهها كلامه الى الحارس وهو يخرج :

– وأنت تبقى هنا مع السيدة سانت كولم .
واغلق الحارس الباب ثانية . ووقف بجواره ،
وأبتسم الى دونا ، وقال :

– سيكون لدينا غدا أمران نمر لهما يا سيدتى .

قالت :

– أجل ، واثمنى أن يكون المولود صبيا ،
فسيكون لكم جميعا المزيد من الشراب . .

فسال السجين :

– ألسنت أنا السبب الوحيد للاثارة ؟

فضحك الحارس :

- انت سينساك الجميع عند الظهيرة • ستكون
متدليا من الشجرة ، بينما بقيتنا يشربون على مستقبل
لورد جودولفين المنتظر •

فابتسمت دونا قائلة :

- يبدو من سوء الحظ أنه لا السجن ولا أنا
ستكون هنا لتشرب على صحة الابن •
واخرجت بعض النقود من جيبها والقت بها الى
الحارس • وقالت :

- انى اراهن انك مسرور الآن أيضا • لم لا تشرب
الآن ، ثلاثتنا •• اذ أن سعادته مع الطبيب ؟

فضحك الحارس ضحكة سعيدة ، وفتح رجاج
الباب ونادى على أحد الحراس الآخرين كي يصعد
بالشراب •

وبينما كان ظهره اليهما ، سألت دونا السجن
بعينيها ، فتحركت شفتاه في همس :

– الليلة فى الحادية عشرة !

وابدت انها فهمت ، وهمست :

– وليم وانا ..

فنظر الحارس من فوق كتفه وقال :

– اذا امسك بنا سعادته ، فانى ساقع فى

مشكلة .

قالت دونا :

– ساتكلم عنك . هذا نوع من الدعابة سيسر

الملك عند ما اراه فى البلاط . ما اسمك ؟

– زكريا سميت يا سيدتى .

– حسن جدا يا زكريا ، اذا كانت هناك اية

مشكلة فانى ساكلم الملك بخصوصك .

وضحك الحارس ، وعندما احضر الرجل الآخر

الشراب ، اغلق الباب وحمل الصينية الى المنضدة .

وقال :

— لتدم حياتك يا سيدتى ، نقود كافية ومعدة
ممتلئة لى ، وأما أنت يا سـيـدى فليمنحك الله موتا
سريعا !

وصب الشراب فى الاكواب ..

ولمست دونا كوب الحارس باصابعها وقالت :

— ليحيا اذن لورد جودولفين المنتظر !

ورفع السجين الكوب ايضا قائلا :

— ألا ينبغى أن نشرب ايضا نخب السيد
جودولفين ؟

فاجابت دونا :

— والطبيب ايضا ..

وفيما هى تتناول شرابها ومضت فى ذهنها فكرة
سريعة وعرفت أن نفس الفكرة قد خطرت له ، لأنه كان
ينظر اليها .

قالت :

– هل انت متزوج يا زكريا سميث ؟

فضحك الحارس وقال :

– اجل .. ووالد لاربعة عشر ولدا .. !!

فابتسمت قائلة :

– اذن فانت تعرف ما يعانيه فخامته فى هذه اللحظة .. ولكن مع طبيب ماهر مثل الطبيب وليم ليس هناك الا سبب طفيف يدعو للقلق . انك تعرف الطبيب جيدا ، فيما اظن .

– لا يا سيدتى . لقد جئت من الساحل الشمالى .
اننى لست من هلستون .

قالت دونا وكانها تحلم :

– الطبيب وليامز شخص ضئيل مثير للضحك ،
ذو وجه مستدير جهم وفم مثل عروة الزرار .

قال السجين ، وهو يضع كوبه على المنضدة :

— اذن أنه لأسف عظيم ، أن لا يشرب معنا
الآن . ربما سيفعل ذلك فيما بعد ، عندما ينتهى يوم
عمله ، ويكون قد صنع من لورد جودولفين أبا .

فسالت دونا :

— ولن يكون ذلك قبل منتصف الليل . هل
توافق يا زكريا سميث والد الأربعة عشر ولدا ٠٠ ١٩ !

ضحك الحارس قائلا :

— منتصف الليل هو الوقت المناسب عادة . .
جميع أولادى قد ولدوا عندما دقت الساعة الثانية
عشر . . !

قالت دونا :

— حسن اذن ، عندما ارى دكتور وليمز ،
ساخبره ، أن زكريا سميث والد الأربعة عشر ، سيسره
على شرف المناسبة أن يشرب قدحا معه قبل أن يذهب
لاداء واجب الخدمة أثناء الليل .

وتناولت أحد الرسوم من فوق المنضدة . وقالت :

— حسنا ، لقد اخترت الرسم الذى اريده .
وافضل لنا ان نذهب ، يا زكريا قبل أن يراك فخامته
بالصينية . . الى اللقاء ، أيها الفرنسى ولنتزلق خارج
لعالم غدا بنفس السهولة التى انزلق بها الريش من
وسادتى .

وتبعت الحارس هابطة الدرجات الضيقة . . كان
قلبها مثقلا ، وجسمها قد حل به التعب فجأة .
وابتسم لها الحارس وقال :

— ألا يبدو هادئا بصورة غير عادية بالنسبة لرجل
سيشنق ؟

فاغتصبت ابتسامة ، ومدت يدها وقالت :

— انك رجل طيب يا زكريا . وأرجو أن تحتسى
اكوابا عديدة فى المستقبل ، وبعضا منها الليلة . . لن
أنسى أن اخبر الطبيب أن يأتى . . انه رجل ضئيل
الحجم ، له فم اشبه بعروة الزرار . . ا

فضحك الحارس قائلا :

- ولكن حلقومه مثل البثر • حسن يا سيدتى •
هبانتظره ، وسيجده شيئا ما يطفىء ظمأه • ولكن أرجوك
الا تقولى كلمة لفخامته •• ا

قالت دونا بوقار :

- ولا كلمة واحدة يا زكريا •• ا
وخرجت من البرج الى ضوء الشمس ، وكان هناك
جودولفين نفسه مقبلا للقائها •• فقال :
- لقد اخطأت •• فالعربة لم تتحرك ، ولا يزال
الطبيب مع زوجتى •

وقالت دونا :

- أرجعتك الى البيت دون سبب • كان هذا
غباء منى •• ولكن النساء كما تعرف غبيات للغاية !!
وقدم لها المرطبات ، ولكنها لم تمكث ، متعللة

بأن لديها أشياء كثيرة تفعلها ، وأبلغته رسائل طيبة
للسيدة جودولفين ..

وامتطت الجواد عبر البرج وتطلعت ببصرها الى
الفتحة الموجودة في الجدار ، وهي تصفر النغمة التي
كان يعزفها بيربلان غالبا .. ورأت ريشة تهبط انت
ببطء خلال الهواء متجهة نحوها ريشة انتزعت من
قلبه .. فأمسكت بها وعدت بالجواد وهي تضحك ،
والريشة مستقرة في قبعتها ..

الفصل العشرون

تطلعت دوننا الى السماء من نافذة حجرة نومها فى
نافرون . كان القمر الجديد خطا ذهبيا نحيلاً يتبدى
فوق الأشجار المعتمة .

وفكت الربطة التى أعطاها لها وليم عندما رجعت
من بيت جودولفين . وفيما هى تبتسم لنفسها ، أخرجت
ملابس الصبى الخشنة . وتذكرت وجه وليم المهموم
وهو يعطيها لها .. وقال :

— انها خير ما استطاعت جريس أن تحصل عليه
لأجلك يا سيدتى • انها تخص اخاها • • !

واجابته :

— انها لا يشوبها عيب • وما كان بيربلان نفسه
يستطيع أن يعطينى خيرا منها !

وذلك لانها يجب أن تكون صبيا مرة أخرى ولآخر
مرة فى حياتها • • وتهرب من ملابسها النسائية هذه
الليلة • • قالت لوليم :

— ساكون قادرة على العدو بطريقة أفضل بدون
ملابس نسائية • فاستطيع ان امتطى الجواد بالطريقة
التي كنت امتطيه بها عندما كنت طفلة •

لقد حصل على الجياد كما وعد ، وكان ذاهبا
للقائها على الطريق من نافرون الى جويك بعد التاسعة •

قالت :

— يجب الا تنسى يا وليم العزيز أنك طبيب •

وأنتى الصبى الذى يساعذك • ويجب أن تدعونى توم
ولا تدعونى يا سيدتى •

فحول نظره بعيدا عنها ، وهو شديد الشعور
بالتعاسة من جراء هذا التفكير ، أما هى فقد ضحكت
ضحكة مرحة • وشرعت الآن ترتدى ملابس الصبى ،
وقد لامتها تمام الملامة • وكان هناك منديل أيضا لفته
حول رأسها • وحتى الحذاء كان يريحها أكثر من الحذاء
الذى قدمه لها بويربلان • وحزام من الجلد حول وسطها •
وذهبت الى المرأة • كانت خصلاتها الفاحمة قد اخفيت ،
وكانت بشرتها بنية اللون • وحدثت نفسها قائلة :
« اننى صبى سفينة مرة أخرى ، أما دونا سانت كولب
فنائمة تحلم ، .. !

وانصتت الى الباب • لم يكن ثمة صوت • كان
الخدم فى حجراتهم • واحتاجت الآن الى كل شجاعتها
لتهبط السلم الى قاعة الطعام • فى الظلام ، حيث لم
تكن هناك ولا شمع واحدة مشتعلة ، كانت ذكرى
روكنجهام ، وهو يزحف صوبها والسكين فى يده شديدة

القوة . لقد فكرت أنه كان من الأفضل أن تغمض
عينها ، لأنه عندئذ لن ترى الدرع العظيم المعلق على
الحائط ، ولا شكل درجات السلم نفسها . وهكذا
هبطت السلم ، ويداه امامها وعيناها مغمضتان ، وقلبها
يخفق طول الوقت وبدا لها أن روكنجهام كان لا يزال
ينتظرها في أشد أركان القاعة ظلاما ، وشدت بقوة
اليأس القضبان ، وجرت خارجة الى الامان والسكون في
الميدان . . . وهناك زايلها الخوف . وكان الهواء رقيقا
ودافئا ، ولم يكن الظلام سائدا تماما .

سارت مسرعة . . . فقد كانت تشعر بالحرية في
ملابس الفتى ، وارتفعت روحها المعنوية . واخذت تصفر
أُغنيه بـبيربلان مرة أخرى . . . وفكرت فيه أيضا ، وفي
وجهه المرح الشبيه بوجه القرد واسنانه البيضاء ، اذ
ينتظر الآن على سطح لامويت في مكان ما ، سيده الذي
تركه على الشاطئ .

وعند منحني من الطريق رأيت شكلا أسود قادما
نحوها ، وكان هو وليم ومعه الجياد . كان معه صبي



كانت تشعر بالحرية وهي في ملابس العبي !

وهو شقيق جريس وصاحب الملابس التي ترتديها .
وعندما اقترب منها وليم ، وكان عليها أن تكتم الضحك
بداخلها . لقد استعار حقيبة ملابس سوداء وجوارب
بيضاء ، كما كان يضع باروكة مجمدة سوداء .

سألته :

- هل كان المولود ابنا أم ابنة ، يا دكتور
وليامز ؟

ودفعت نفسها على أحد الجوادين وهي تضحك .

وعندما وصلا الى جدار جودولفين تركا الصبي مع
الحياد تحت الاشجار .

وسارت دونا ووليم على القدم ، كما رتبا الأمور
من قبل . كان الظلام سائدا الآن ، وأولى النجوم تشع
في السماء ، وتسلقا الجدار الى داخل الحديقة .
وامكنهما أن يريا على بعد شكل البيت المظلم ، وكان
لا يزال ثمة ضوء في إحدى النوافذ فوق الباب ، وعندما
ازدادا اقترابا ، أمكنهما أن يبصرا عربة الطبيب تنتظر
عند الباب الرئيسي . .

قالت :

— هل انت مستعد ؟

وتبعها فى اتجاه البرج • ومرت بها دقيقة من القلق • هل كان وليم صالحا بما فيه الكفاية كممثل ؟ هل لديه الثقة الكافية ؟ وعندما وقفا أمام باب البرج المغلق ، ونظرت اليه ، ولمست كتفه ، فابتسم لأول مرة فى ذلك المساء ، وثمة ضحك فى عينيه • وعادت اليها ثقتها فيه • فهو لن يخفق •

لقد أصبح ، فى لحظة ، الطبيب وفيما هو يقرع باب البرج ، صاح بصوت مرتفع ، بشكل لا يتفق ابدا مع وليم الذى عرفته فى نافرون :

— هل زكريا سميث هنا ، وهل يستطيع دكتور وليامز من هليستون أن يتبادل معه كلمة ؟

واستطاعت دونا ان تسمع صيحة اجابة من البرج ، وانفرج الباب مفتوحا ، وكان هناك صديقها الحارس ، يضحك ويمد يده قائلا :

— وعلى هذا فان السيد ؤلم تنس وعدھا ؟ حسنا ،
ادخل ، يا سيدى • اهلا وسهلا ، ولدينا هنا ما يكفى
من الشراب لاشد الرجال ظمأ فى العالم • • اكان
الوليد صبيا • • ؟

قال وليم :

— بالتاكيد : صبي لطيف • مثل سعادته
تماما !

ودعك يديه ببعضهما علامة الرضا ، وتبع الحارس
الى الداخل • كان الباب قد ترك مفتوحا قليلا ، بحيث
أن دونا ، وهى مختفية بالقرب منه ، كان بمقدورها
أن تسمعهما يتحركان بالداخل ، وكان يمكنها أن تسمع
صوت الاكواب وهى تتلامس ، وضحك الحارس •
وهو يقول :

— حسنا ، يا سيدى ، لقد كنت ابا لأربعة عشر
ولدا ، وأعرف الشغل جيدا • كم كان وزن الطفل ؟
قال وليم :

— آه • • • الوزن الآن • • دعنى أرى !
واستطاعت دونا ، وهى تكتم ضحكها ، أن تتخيله

واقفا هناك ، يحاول أن يفكر في اجابة ، لانه بالطبع لم تكن لديه معرفة في هذا تزيد على معرفة الوليد نفسه .
واتى باصوات تدل على استخسانه للشراب ، وكان الحارس مبرورا ونسى سؤاله . . ولكنه قال :

— اننى اراهن على انهم لا يعرفون أن يصنعوا شرابا كهذا فى فرنسا . . لقد أخذت كوبا مثل هذا للسجين منذ دقائق قليلة ، ولن تصدقنى يا سيدى . . اذا قلت لك انه هادىء بطريقة لا تنتظر من رجل مشرف على الموت . . لقد تناول مشروبه فى جرعة واحدة ، وشكرنى ، وهو يضحك !

وسعل وليم سعلة جافة وحادة . . وهى اشارة خفيفة اليها . وقال :

— انه ليشوقنى ان أرى الرجل . بعد ما سمعت عنه ، انه رجل خطير جدا ، كما سمعت . انه نائم الآن ، فيما اظن ، اذا أمكن لانسان أن ينام فى ليلته الاخيرة .
كان هناك حارسان عند بوابة البرج قد ادارا

ظهريهما اليها . وكان احدهما جالسا قرب الحائط
وكان الآخر واقفا يتطلع الى السلم .

كان الضوء المنبعث من المصباح ضعيفا ، ووقفت
فى ظل الباب وقرعته سائلة :
- هل دكتور وليامز هنا ؟

فاستدار الرجلان ، فاخبرتهما :

- لقد ارسلوا كلمة من البيت . السيدة جودولفين
اصابها الضعف ثانية .

قال الرجل القريب من السلم :

- حسنا يا فتى !

وشرع يصعد السلم ، وهو ينادى :

- يا زكريا .. انهم يريدون الدكتور فى
البيت !

وراقبته دوننا وهو يستدير عند ركن السلم ويقرع
على الباب ، وعندئذ دفعت باب المدخل بقدمها ، واغلقتة،

وارتجته ، قبل ان يستطيع الحارس الجالس على الكرسي
أن ينهض ويصيح :

— من هذا ؟ ماذا تفعل هنا ؟

كانت المنضدة تقف حاجزا بينهما ، وبينما كان
الحارس يتجه صوبها انحنت عليها بكل قوتها .
وسقطت المنضدة الى الأرض ، وطرحته أرضا أثناء
سقوطها . . . وكان هناك صوت ضربة من الطابق الأعلى
وصرخة واحدة . ثم امسكت بوعاء الشراب والقتته على
المصباح بحيث انطفأ النور . كان الرجل المطروح
أرضا ، فيما هو يجاهد من تحت المنضدة ، يصيح
مناديا : زكريا . . . زكريا . . . وشرع يتحرك في ارتباك
في الظلام ، وهو يسب بصوت مرتفع . وسمعت دونا
الفرنسي ينادى عليها من الطابق الأعلى :

— هل انت هناك يا دونا ؟

واستطاعت بعد جهد ان تقول ما بين الاهتياج
والضحك والخوف :

— اجل !

وقفز من السلم الى الأرض ، وعثر على الرجل في
الظلام ، وسمعتهما يتقاتلان هناك ، بالقرب من السلم .
كان يستخدم طرف المسدس الخشبي ، واستطاعت ان
تسمع الضربة . وسقط الرجل ازاء المنضدة . وقال
الفرنسي :

– اعطني منديلك ، لاكم فمه !

فنزعتة عن رأسها . .

وفي دقيقة كان قد انتهى . وقال مسرعا :

– راقبيه . انه لا يستطيع أن يتحرك . .

وسمعت دونا الفرنسي وهو يتجه بعيدا عنها

في الظلام ويصعد درجات السلم ثانية . . وقال :

– هل امسكت به يا وليم ؟

وكان هناك صوت شيء ثقيل يجر على الأرض .

وعندئذ نادى الفرنسي عليها من أعلى :

— افتحي الباب يا دونا • وانظري اذا كان هناك
أحد قادم !

فوجدت طريقها اليه في الظلام ، وجذبت الرتاج
الثقيل بعيدا • وفتحت الباب وتطلعت الى الخارج ••
كان صوت العجلات قادما من اتجاه البيت ، في اتجاه
البرج كانت تأتي عربة الطبيب • وامكنها أن تسمع
السائق وهو يقرع بصوته ويستحث جواده ••

واستدارت عائدة الى داخل البرج لتنبيههم ، ولكن
الفرنسي كان بجوارها • ونظرت الى وجهه ، ورأت
الضحك في عينيه ذلك الضحك الذي رآته من قبل ،
عندما انتزع الباروكة عن رأس جوردولفين •

وحث خطاه الى الطريق ، وهو يرفع يده •
فهمست :

— ماذا تفعل ؟ هل جننت •• ؟!

ولكنه ضحك دون أن يلتفت اليها • ووقف

السائق جواده عند مدخل البرج ، وظهر وجه الطبيب
الطويل النحيل بنافذة العربة .. وصاح الطبيب
بصوت يفيض بالشكوى :

— من أنت ؟ وماذا تريد ؟

فوضع الفرنسي يديه على النافذة ، وابتسم
قائلا :

— هل اعطيت فخامته طفلا ، وهل هو مسرور من
طفله .. ١٩

فصاح الطبيب وهو يسب ويلعن :

— لا . انه غير مسرور .. لقد ولد له بنتان ..
وهلا تفضلت برفع يدك عن نافذة العربة حتى تدعني
امضي لحال سبيلي لأن كل ما اريد هو أن اتناول عشاءتي
وأنام .. فقال الفرنسي :

— ولكنك ستوصلنا أولا .

وفي لحظة كان قد طرح السائق عن مقعده .

وقال :

– اصعدى الى جانبى يا دونا • يجب أن نستمتع
بهذه الجولة !

ففعلت كما أخبرها ، وهى تضحك • وكان هناك
وليم ، فى معطفه الأسود الغريب ، ولكن بدون شعره
المستعار وبدون قبعته وهو يقفل باب البرج وراءه
ويسدد مسدسه الى وجه الطبيب المندهش وقال
الفرنسى :

– ادخل يا وليم •

ومضت العربة هابطة الى الميدان ، بأسرع ما يمكن
ووصلوا الى بوابات الحديقة ، المحكمة الاغلاق •
فصاح الفرنسى :

– افتحوا البوابات !

وعندما ظهر رأس مستغرق فى النوم عند كوخ ،

قال الفرنسى :

– سيدكم أصبح لديه بنتان ، والطبيب يريد

عشاءه ، أما بالنسبة لى ولفتاى فقد نلنا من الشراب
ما يكفيننا ثلاثين عاما .

فانفتحت البوابات ، وحارس البوابة يتطلع اليهم
فاغر الفم ، واتدفعت العربى على الطريق ، والغبار
يتطاير من العجلات ٠٠٠ !

الفصل الحادى والعشرون

انتهت المغامرة الآن ، والجنون ، والضحك .
وثمة عربة بمكان ما على الطريق مركونة فى ساحة حانة
.. وجوادها حر وشبعان .. وكان هناك طبيب يسير
على الطريق باحثا عن عشائه .. وحرس مستلقين مقيدين
على ارضية السجن فى البرج ..

كانت هذه الأمور قد حدثت فى المساء ، ولا مكان
لها فى الليل .. كان الوقت قد جاوز منتصف الليل

الآن • والظلام أشد كثافة من ذي قبل • والنجوم أشبه
ببقع من الضوء • والقمر الجديد قد غاب عن الأنظار •

ووقفت دوننا تنظر الى البحيرة • وتبينت أنها
منفصلة عن البحر بحاجز من الأحجار ، وبينما كانت
الأمواج تنكسر على الشاطئ • • كانت البحيرة نفسها
هادئة ولا يعكر صفوها شيء •

وبعيدا عن التل كانت هناك قرية بورتلين .
حيث توجد قوارب الصيد بقرب المرساة ، ووليم يتطلع
في وجه سيده ، ومن فوق كتفه ثانية في اتجاه التل • •
وقال :

— من الحكمة يا سيدي لو ذهبت الآن ، قبل
إشراق النهار ، وعثرت على قارب • سأحضره الى
الشاطئ هنا ، ويمكننا أن نرحل عندما ترتفع الشمس !

فقال الفرنسي :

— أظن انك ستجد قاربا ؟

فأجاب :

— أجل يا سيدى • سيكون هناك قارب صغير عند
مدخل الميناء • لقد قمت بإعداده يا سيدى قبل أن أغادر
« جويك » ..

قالت دونا :

— ان وليم يجد طريقا دائما • انه لا ينسى شيئا •
وبسببه لن يكون ثمة شئق فى الصباح • • ولكن قارب
صغير فحسب يجذف فى اتجاه البحر •

ونظر الفرنسى الى خادمه ، ونظر الخادم الى دونا ،
فيما هى واقفة بجوار البحيرة ، وابتعد عنهما فجأة ،
وسار فوق حاجز الأحجار صوب التل البعيد ، وبدأ
شكلا نحىلا يثير الفضول فى معطفه الطويل • واختفى
فى الظلام ، وأصبحا وحدهما • •

كان هناك تجويف بجوار البحيرة ، من رمل أبيض
ناعم ، فأشعلا نيرانهما هناك • وقال لها :

— ليس لدى الليلة دجاج • وعلى صبي سفينتى
أن يرضى بقطعة من الخبز المحروق !

ووجه انتباهه كله الى اشتغاله بالنار ، وهز رأسه
ومسح وجهه بذراعه لأن حرارتها كانت شديدة ..

وعرفت ان هذه صورة منه لن تمحي أبدا - النار ،
والبحيرة ، والسماء المظلمة ونجومها ، والبحر يتكسر
على الشاطئ خلفهما .

وبعد أن تناولا عشاءهما أضحت النار أضعف
من ذى قبل ودخان الخشب يرتفع فى الهواء وعندئذ قال
لها :

- لقد قاتلت رجلا ، يا دونا ، ولفظ أنفاسه ،
على الأرض فى بيت نافرون ! .. !

فنظرت اليه ولكنه حول عنها عينيه . وأخذ يقضم
من الخبز . فسأله :

- وكيف عرفت ؟

فاجاب :

- لأنى اتهمت بقتله . وعندما اتهمت تذكرت

ما قيل عنك وعنه في لندن ، وتذكرت وجه رجل نظر
الى بكراهية وأنا أنتزع خواتمه ، وعرفت عندئذ
ما حدث ، يا دونا ، عندما تركتك في تلك الليلة !

فتطلعت الى بعيد فوق البحيرة . وقالت :

— عندما ذهبنا للصيد . لم أستطع أن أنتزع
الشص من فم السمكة ، ألا تذكر ؟ .. ولكن ما فعلته
تلك الليلة كان شيئاً مختلفاً ؟ لقد كنت خائفة أول
الأمر ، ثم اجتأحني الغضب .. وعندما غضبت ،
انتزعت الدرع من على الجدار ، وبعد ذلك .. لقد مات !

فسالها :

— ما الذى جعلك تغضبين ؟

ففكرت لحظة ، وحولت نظرها اليه فوجدت أنه
أنهى عشاءه ، وكان الآن جالسا ويداه حول ركبتيه .
وعيناه مثبتتان على البحيرة .

قال :

— آه ، لقد كان جيمس اذن هو الذى استيقظ

وصرخ • وأنت وأنا ، يا دونا ، نتقابل •• نتقابل عند
هذه البحيرة بدلا من « كوفرك » - وأنا أعرف اجابتك .
والقى بحجر الى البحيرة ، فكونت دوائر انتشرت
على سطح البحيرة حتى تلاشت ، واستلقى عندئذ على
ظهره فوق الرمال •

وقال :

- أعتقد ان السيدة سانت كولب لن تعود لتسلك
سلوكا أحرق في شوارع لندن •• لأنها قد نالت من
حياة المغامرة ما يكفيها •

قالت :

- ستكون السيدة سانت كولب زوجة طيبة لأحد
كبار ملاك الأرض الريفين ، تبتسم في عطف الى خدمها
والى أهل القرية ، وذات يوم سيكون لها أحفاد يتجمعون
حول ركبتها لتحكى لهم قصة القرصان الذى هرب ••

سألتها :

- وماذا سيحدث لصبي السفينة •• ؟

- سيرقد صبي السفينة متيقظا أثناء الليل .
ويغض أظافره ، ويتلوى ويستدير ، ثم يعود الى النوم
وينحلم ثانية .. !

كانت البحيرة تمتد مظلمة وساكنة عند أقدامهما .
ومن خلفهما يأتي صوت البحر وهو يتكسر على
الشاطئ .

قالت :

- اتظن أن لامويت تنتظرك هناك ، على البحر ،
وانك ستجدها في الصباح ؟ ..

قال :

- أجل !

قالت :

- ووليم .. ولیم الذى لا يحب البحر ..
سيعرض ويرغب أن يعود الى نافرون ثانية ..
- لا .. ولیم سيشعر بالملح على شفتيه . وبالريح

فى شعره ، وربما قبل مجىء الليل تعتدل الرياح ،
وسيرى الأرض ثانية ، ويشم العشب الدفىء عند قمم
المرتفعات ، وسيعنى هذا بالنسبة له بريتانى
والبيت ٠٠ !

واستلقت مثله على ظهرها ، ويداها خلف رأسها
وكان هناك الآن تغير فى السماء ، واختلس الضوء
الواهن الذى سبق طلوع النهار طريقه ، وهبت الريح
الواهنة أقوى مما كانت من قبل ٠٠

— انى لاتساءل : هل كان هناك بحيرة كهذه فى
حياة كل انسان عندما أخذت أمور العالم تفسير سيرا
معوجا ٠٠ ونسى الرجال أن يعيشوا وأن يحبوا ، وأن
يكونوا سعداء ؟

قالت :

— ربما كانت هناك امرأة • والمرأة أخبرت رجلها
أن يبنى بيتا من الأعواد والأعشاب ، ثم أن يبنى بيتا
من خشب ، وبعد ذلك يشيد بيتا من حجر ، وعندئذ
جاء رجال ونساء آخرون ، وسرعان ما لم يعد هناك تلال

ولا بحيرات ، لا شئ غير بيوت حجرية مستديرة كلها
متشابهات .

قال :

— وأنت وأنا ، لدينا بحيرتنا وتلالنا لهذه الليلة
فحسب !

لقد بدا لهما ، عندما أشرق النهار ، أن به من
الجمال ما لم يعرفاه من قبل . كانت السماء ساطعة
ولامعة . . وكانت البحيرة تمتد عند أقدامهما أشبه
بملاء من فضة . وعندما بدأت الطيور أنشودتها
الهامسة الأولى فى الغابات ، شعرا برقعة الرمل
الضئيلة ، وسارا على حاجز الأحجار حتى بلغا الشاطئ .
وعلى بعد مائة ياردة منهما استقر قارب صيد صغير
خفيف فوق البحر ، وعندما رآهما وليم على الشاطئ ،
أخرج المجذافين الطويلين ودفع القارب فى اتجاههما .

ووقفا سويا على الشاطئ ، ينتظران القارب ،
وفجأة رأت دونا فى الأفق البعيد المقدمة البيضاء
لسفينة تتجه صوب الشاطئ .

كانت لامويت تتجه صوب سيدها ، وفيما هو
يقفز الى قارب الصيد الذى ينتظره ويثبت الشراع
الصغير خيل لدونا ان هذه اللحظة كانت جزءا من لحظة
أخرى ، مضت منذ وقت بعيد ، عندما أطلقت بصرها
عبر البحر من جانب مخالف من الساحل .

ولاحت سفينة حديثة الطلاء على البحر الأبيض
الساكن وشعره دوناً فجأة بالبرد اذ موجة صغيرة تندفع
فوق قدميها الحافيتين ، وهمست ، ثم تلاشت . وعندئذ
صعدت الشمس من البحر حمراء ساطعة أشبه بكرة من
نار . . .

رقم الإيداع ٩٩/٩٦٨٢

I.S.B.N-----

977 - 01- 6254 - X

صلى
١٩٩٩/٩/١٦
مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب